إمامان إن قاما وإن قعدا

السيد هادي المدرسي

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمركز

العراق- النجف الأشرف
www.imamhassan.org
info@imamhassan.org
+964 7803358020

هوية الكتاب

اسم الكتاب: .....إمامان إن قاما وإن قعدا
المؤلّف: .....السيد هادي المدرسي
الطبعة: ..... الأُولى
سنة الطبع: .....١٤٣٧هـ / ٢٠١٦م
الكمّية: .....١٠٠٠ نسخة
الناشر: .....مركز الإمام الحسن ﷺ للدراسات التخصّصية
الإخراج الفنّي: ..... وحدة الإخراج الفنّي

إمامان
إن قاما وإن قعدا

السيد هادي المدرسي

مقدّمة المركز

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام علىٰ أشرف الخلق أجمعين محمّد وآله الطيِّبين الطاهرين، واللعن الدائم علىٰ أعدائهم أجمعين إلىٰ قيام يوم الدين، آمين ربَّ العالمين.

أهل البيت عليهم السلام شخوصٌ نورانيَّة وأشخاصٌ ملكوتيَّة، منها ولأجلها وُجِدَ الكَوْن، وإليها حسابُ الخَلق، يتدفَّقون نوراً وينطقون حياةً، شفاههم رحمة وقلوبهم رأفة، وُضِعَ الخير بميزانهم فزانوه عدلاً، ونَمَت المعرفة علىٰ ربوع ألسنتهم فغذّوها حكمةً.

أنوارٌ هداة، قادةٌ سادات (**ينحدرُ عنهم السيل ولا يرقىٰ إليهم الطير**)، ألفوا الخَلق فألفوهم، تصطفُّ علىٰ أبوابهم أبناء آدم متعلِّمين مستنجدين سائلين، وبمغانمهم عائدين.

لا يُكرِهون أحداً علىٰ موالاتهم ولا يجبرون فرداً علىٰ اتِّباعهم، يُقيِّد حبُّهم كلَّ من استمع إليهم ويشغف قلبَ كلِّ من رآهم، منهجهم الحقُّ وطريقُهم الصدق وكلمتُهم العليا، هُم فوق ما نقول ودون ما يُقال من التأليه، هُم أنوار السماء وأوتاد الأرض.

والإمام الحسن المجتبىٰ عليه السلام هو أحد هذه الأسرار التي حار الكثير في معناها وغفل البعض عن وجه الحكمة في قراراتها وباع آخرون دينهم بدنيا غيرهم فراحوا يُسطِّرون الكذب والافتراءات

عليه والتي جاوز بعضها حدَّ العقل ولم يتجاوز حدَّ الحقد المنصبِّ علىٰ بيت الرسالة.

وقد اهتمَّ مركز الإمام الحسن عليه السلام للدراسات التخصّصية بكتابة البحوث والدراسات وتحقيق المخطوطات التي تُعنَىٰ بشأن الإمام الحسن المجتبىٰ عليه السلام ونشرها في كتب وكتيّبات بالإضافة إلىٰ نشرها علىٰ مواقع الانترنت وصفحات التواصل الاجتماعي التابعة للمركز.

بالإضافة إلىٰ النشاطات الثقافيَّة والإعلاميَّة الأُخرىٰ التي يقوم بها المركز من خلال نشر التصاميم الفنّية وإقامة مجالس العزاء وعقد المحاضرات والندوات والمسابقات العلميَّة والثقافيَّة التي تثرىٰ بفكر أهل البيت عليهم السلام وغيرها من توفيقات الله تعالىٰ لنا لخدمة الإمام المظلوم أبي محمّد الحسن المجتبىٰ عليه السلام.

وهذا الكتاب الذي بين يديك عزيزي القارئ هو أحد تلك الثمار التي أينعت والتي لا تهدف إلَّا إلىٰ بيان شخصيَّة الإمام الحسن المجتبىٰ عليه السلام بكلِّ أبعادها المضيئة ونواحيها المشرِقة، ولرفد المكتبة الإسلاميَّة ببحوث ودراسات عن شخصيَّة الإمام الحسن المجتبىٰ عليه السلام، ومن الله التوفيق والسداد.

العتبة الحسينية المقدَّسة

مركز الإمام الحسن عليه السلام للدراسات التخصّصية

كاظم الخرسان

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعالَمِينَ

الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ

صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ

الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ

الفصل الأول

الإمامة وموقعها من الرسالة

سؤالان خطيران

السؤال الأول:

لو لم يوجد الأئمة ماذا كان يحدث؟ والآن حيث عاش هناك: علي، والحسن، والحسين – في حقبة قديمة من التاريخ – ماذا حدث؟ ماذا كنا نخسر لو لم «نملك» أئمة؟ وماذا ربحنا الآن حيث «نملك» أئمة؟

السؤال الثاني:

ماذا قدم الأئمة للحياة؟

ولماذا يُطلب منا أن نعتقد أنهم قدموا كل شيء لنا، بينما لم يتركوا وراءهم سوى أراشيف من التراث الفكري، وشيئاً من القصص والحكايات؟

فلماذا يجب أن نقدس الأئمة أكثر من المكتشفين والمخترعين وأصحاب النظريات المفيدة؟

سؤالان خطيران، لا يمكن أن نمر عليهما مرور الكرام، لأنهما يختلجان في قلب كل من يؤمن بالأئمة عليهم السلام، أو يقرأ عنهم..

وهما سؤالان، لا يمكن أن ندرس تاريخ أي إمام بموضوعية تامة. من غير أن نعرف مسبقاً حقيقة الأمر بالنسبة إليهما..

والآن..

حيث نحاول أن نضع الحقائق في الإجابة على السؤالين الخطيرين، فإننا نلخصهما بالشكل التالي:

١ – ما ضرورة الأئمة للحياة؟

٢ – ماذا قدّم الأئمة للحياة؟

لكي يسهل – بعد ذلك – تناول الجواب بوضوح.

ما ضرورة الأئمة للحياة؟

والجواب:

هناك ضرورات ثلاث تفرض وجود الأئمة، وهي:

واحد: الضرورة الكونية.

اثنين: الضرورة التشريعية.

ثلاثة: ضرورة وجود القدوة.

عندما نرجع إلى الأئمة أنفسهم.

ونسأل: ما هي ضرورة وجودكم على وجه الأرض؟

نجدهم يجيبون بصراحة: أن الحياة ترتبط بوجودهم، كارتباط النهار بالشمس، والنور بالمشعل.

وتأتي كلماتهم في ذلك، لتقول:

«بنا فتح الله، وبنا يختم!

وبكم ينزل الله الغيث، وبكم تغيض الأرحام!

لو لا الحجة لساخت الأرض بأهلها!

بكم رزق الورى»!

وهذا يعني أن إجابة الأئمة على السؤال السابق هي:

أن الله بدأ الخلق بنا، فكلنا نقطة الانطلاق. وأن الله سوف يختم الخلق بنا، فنحن نهاية المطاف.

فلولانا لما وجدت شمس، ولا قمر، ولا نبات، ولا إنسان، ولا حياة. لأن وجود الكون يرتبط بوجودنا، ولولانا لساخت الأرض بأهلها وتمزق الكون كله..

ولكن كيف؟

الواقع أن للحياة جانبين: مرئي وغير مرئي.

ونحن نعرف الجانب المرئي من الحياة فقط، ولكننا نستطيع أن نعرف بعض خصائص الجانب غير المرئي، من المقارنة بين الجانبين.

مثلاً نحن نعرف أن كل أشياء الحياة تسير وفق تنظيم دقيق للغاية. ونعرف أيضاً أن هذا التنظيم يقوم على أساس الارتباط

العـام. ونعـرف أن الارتبـاط العـام يقـوم عـلى أكتـاف رابـط. ذلـك لأن التنظـيم لا يمكـن أن يوجـد بـلا ارتبـاط، والارتبـاط لا يمكـن أن يوجـد بلا رابط، وهكـذا فـنحن في كـل جـزء مـن أجـزاء الحيـاة نلاحـظ وجـود الرابط.

و«الـرابط» يقـوم بـالتوزيع، والتـدبير، إلى جانـب قيامـه بـالربط العام.

ونستطيع أن نمثل له بكل سنة معروفة من السنن الكونية.

فالجاذبيـة الأرضـية، تـربط أجـزاء الحيـاة بعضـها بـبعض، وتقـوم بتوزيع «القـوى» الجاذبـة تـدبيرها. تمامـاً كـما يقـوم «المحـول» الكهربـائي بتجميـع «القـوة الكهربائيـة» المنتشـرة في كـل مكـان، ومـن ثـم يقـوم بتوزيعها حسب الشكل المطلوب.

وهكـذا فـإن كـل «قـوة» في هـذا الكـون تلتـف حـول رابـط، هـو «السُـنة الكونيـة» بحيـث لـو لا وجـود «السـنة الكونيـة» لم يكـن لتلـك القوة أي «وجود» تأثيري.

هذا في الجانـب المرئـي والمعـروف مـن الحيـاة. أمـا في الجانـب غـير المرئـي، فإننـا نسـتطيع أن نعـرف أن مـن المسـتحيل أن تتماسـك السـنن الكونية، والقوى المختلفة، وتتوزع بشكل عادل من دون «رابط».

مستحيل أن لا تحتاج مجموعة السنن الكونية إلى رابط، في الوقت الذي نجد أن القوة الواحدة منها لا تستقر إلا في حضن رابط.

وهكذا.. فإن وجود رابط يقوم بالتنظيم والتقسيم للقوى والسنن، ويعطيها الفاعلية التأثيرية، ضرورة حياتية في الكون.

وذلك الرابط هو.. الإمام.

إننا عادة نحاول التعرف على ذات «السنة الكونية» أو «القوة الفاعلة» وننسى أن لهذه السُنة والقوة «مديراً» خارجياً يقوم بتوزيعها، وتقسيمها، وتدبيرها.

قد يقال: أن الله هو ذلك «المدير» الذي «يدبر الأمور».

وجوابي: لا شك في ذلك. ولكن الله «أبى أن يجري الأمور إلا بأسبابها». ويعني ذلك أن «إدارة» الله لابد أن تتم عبر وسيط. ذلك الذي عبر الله عنه بالخليفة حينما قال للملائكة:

﴿إِنِّي جاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

فالخليفة هو الذي يقوم بدور الشخص في حال غيابه. ولكن الله ليس غائباً وإنما هو «حي قيوم» إلا أنه «يجري» الأمور عن طريق «الخليفة» بحيث يكون للخليفة «دور بارز» تماماً كما لو كان الله «غائباً».

فخليفة الله في الأرض، هو الوسيط الذي يجري الله أموره عن طريقه.

فالنبي ﷺ – مثلاً – يقوم بدور «الواسطة الفاعلة» بين الله الخالق، وبين الأشياء المخلوقة. تماماً كما يقوم بدور «الواسطة المذكرة» بين الله الحاكم، وبين المخلوقين المحكومين.

و«قيمومة» الله التي جاءت في الآيات القرآنية لا تعني المباشرة، إنما تعني «الإرادة» الفاعلة ولكن عن طريق «سبب». وهذا ما أراده الله تعالى.

فنحن نعتقد أن الله هو القائم على الأشياء جميعاً، فلا تفويض – من قبله – إلى القوانين كما قد يعتقد البعض، بأن الله خلق الكون وخلق القوانين لتسيير الكون، ثم ترك «الفعل» و«التأثير» على عاتق القوانين وبذلك فوّض أمر تسيير الكون والحياة إلى تلك القوانين.

وهذا هو التفويض الذي يسلب إرادية الله الفعلية والقائمة في كل لحظة عن الأشياء، وبالتالي يعني «العجز الإلهي» بصورته الضعيفة.

فالله له إرادة قائمة في كل شيء، بحيث لو سلب إرادته عن شيء لأصبح «عدماً». إلا أن هذه الإرادة تنفذ عن «طريق ما». وهذا

الطريق هو الوسيط الذي يعبر عنه في الروايات «بالحجة». ويكون نبياً تارة، ووصي نبي تارة أخرى.

فالوسيط لتسيير الإرادة الإلهية للكون والحياة، هو الشخص الذي يفعل ما يريده الله، ولا يخالفه في صغيرة ولا كبيرة. فهو ينفذ إرادة الله من دون أن تكون عنده إرادة مخالفة لإرادته.

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«نحن صنائع الله، والخلق صنائعنا، إذا شاء الله شئنا، وإذا شئنا شاء الله، ولا نشاء إلا أن يشاء الله»[1].

مرة كان هشام بن الحكم، يسير في أزقة المدينة، إذ التقى به رجل لا يؤمن بضرورة الأئمة للحياة. فقال لهشام:

- من أين تثبت ضرورة وجود الإمام؟

- فقال هشام: من وجودك أنت.

- وكيف ذلك؟

- ألك يد؟

- نعم.

- ماذا تفعل بها؟

- أعمل بها، وآكل بها، وأحركها كما أريد.

---

(١) إلزام الناصب.

- ألك رجل؟

- نعم.

- ماذا تفعل بها؟

- أمشي بها.

- ألك عين؟

- نعم.

- ماذا تفعل بها؟

- أنظر بها إلى الأشياء.

- ألك قلب؟

- نعم.

- ماذا تفعل به؟

- لا أفعل به شيئاً. وإنما قلبي يدير أعضائي.

- فقال هشام:

إذا كانت أعضاؤك الصغيرة بحاجة إلى من يديرها، فكيف تقول أن الكون الكبير لا يحتاج إلى مدير؟

وأضاف:

إن الإمام في الحياة، مثل القلب في الإنسان.

فإذا كانت أعضاء الإنسان: كعينه ويده، ورجله، بحاجة إلى مدير، فكيف يمكن أن يستغني الكون كله عن «المدير»؟

فإذا قيل: أن مدير الكون هو الله. لتساءلنا: أليس الله هو مدير الجسد الإنساني أيضاً؟ فلم إذن خلق القلب؟

إن الله لن يدير الكون بالفوضى. وإنما عن طريق وسيط. تماماً كما أن الله يدير الجسد عن طريق وسيط.

والوسيط في جسد الإنسان هو: القلب أما الوسيط في الكون فهو الإمام.

ولذلك ورد في الحديث: لولا الحجة لساخت الأرض بأهلها. لأن الإمام هو «قلب الكون» وكما يموت الجسد، إذا توقف القلب، كذلك يموت الكون بتوقف الإمام عن الحركة.

ولا يعني ذلك: أن للإمام إرادة مستقلة عن إرادة الله. وإنما يعني أن إرادة الله تنفذ عن طريق الإمام.

فالإرادة الفاعلة هي إرادة الله لا غير. إلا أنها تسير عبر الإمام.

وهكذا يريد الله.

في سورة القدر، نقرأ الفقرة الآتية:

﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾.

وكلمة ﴿تَنَزَّلُ﴾ تختلف عن كلمة «نزل». وإذا كان الله يعني أن الملائكة نزلت في ليلة القدر على رسول الله ﷺ، وانتهى نزولها بذلك، لقال: «نزلت الملائكة فيها» ولكنه يقول: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾. وهذا يعني الاستمرار في النزول، كل ليلة قدر.

والسؤال هو: على من تنزل الملائكة؟

وماذا يعني نزولها؟

قبل كل شيء لابد أن نعرف أن «الملائكة» هي الوجودات الشاعرة، التي تنفذ أوامر الله وهي بذلك تعني مجموعة «المديرات» للقوى والسنن وأشياء الحياة جميعاً.

فهناك ملائكة للرزق.

وملائكة للقوى.

وملائكة للسنن.

وملائكة للأشعة.

وملائكة للأمواج.

وملائكة للحياة.

وملائكة للموت.

وكل نوع منها يقوم بإدارة قسم من شؤون الحياة، سواء كانت معروفة للإنسان أو غير معروفة.

وهذه جميعاً تنزل ليلة القدر، بدليل أن الله تعالى يقول: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾.

و﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ تعني ملائكة كافة الأمور.

إنها تنزل على ذلك «الوسيط» - الذي قد يكون نبياً وقد يكون إماماً - لكي تنفّذ عن طريقه إرادة الله.

وليس في هذا غلو في حق الإمام، أو النبي إذ نحن نعترف أن الأنبياء والأئمة من حيث الجسد، لا يختلفون عنا في شيء.

فالنبي لا يختلف جسدياً في كونه يخضع لما نخضع له نحن، ولكنه من حيث كون الرابط والوسيط بين الله وخلقه، هو فوق البشر جميعاً.

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ﴾ فالقضية هي قضية: ﴿يُوحى إِلَيَّ﴾ وهي التي تكشف عن «الخلافة الإلهية» في النبي أو الإمام.

وبعد هذا العرض، نستطيع أن نعرف بوضوح معنى قول الأئمة عليهم السلام:

- بنا فتح الله، وبنا يختم.
- بيمنه يرزق الورى.

- لـولا الحجـة لسـاخت الأرض بأهلهـا.. الـخ يقـول الإمـام العسكري عليه السلام:

- إن الله تبـارك وتعـالى لم يخـلِ الأرض منـذ خلـق آدم - ولا تخلـو إلى يـوم القيامـة - مـن حجـة عـلى خلقـه، يـدفع الـبلاء عـن أهـل الأرض، وبه ينزل الغيث، وبه يخرج بركات الأرض[1].

.. وتلك هي الضرورة الكونية لوجود الإمام.

ومـن الناحيـة التشـريعية، فإننـا نجـد ضرورة ملحـة، لا تقـل عـن الضرورة الكونية لوجود الأئمة عليهم السلام.

ذلك، لأن عمـر النبـي الرسـالي (أقـل مـن ربـع قـرن) كـان أقصـر مـن المقـدار المحتـاج إليـه لتكميـل مجموعـة الدسـاتير والألـواح التـي تشكل «دين الله الكامل».

فقـد بقيـت دسـاتير كثـيرة وردت في القـرآن أو في السـنة النبويـة بحاجـة إلى اسـتخراج المـوارد الجزئيـة منهـا، وقـد تـرك الرسـول الأعظم صلى الله عليه وآله هذه المهمة للأئمة الاثني عشر عليهم السلام من بعده.

ذلـك لأن الإسـلام، كـان ملتزمـاً - عمليـاً - بعـدم الكشـف عـن أي دسـتور أو قـانون إلا في مـورده الخـاص، ولـدى الضـرورة الملحـة، حتى يستطيع أن يقدم موقفين في وقت واحد:

---

(١) الأنوار البهية: ص١٨٢.

أ – الموقف الفكري.

ب – الموقف العملي.

فهو لم يعرض دساتيره بشكل جاف، وبعيداً عن «مورد التطبيق» خلال حفل واحد، كما تعرض الدساتير على الشعوب الآن.. وإنما ترك للظروف الخاصة أن تفرض الكشف عن حكمها في الوقت المناسب، وبالشكل المناسب حتى يعرف الناس. رأي الإسلام مع مكان تنفيذه ونوعيته.

ولهذا فإن القرآن لم ينزل على المسلمين مرة واحدة، وإنما نزل في غضون ٢٣ عاماً تباعاً، وكانت الأحداث هي التي تتطلب الحكم الخاص بها..

وعندما مات النبي ﷺ بقيت قضايا كثيرة لم يأت ظرفها ليكشف الإسلام عن أحكامها الجزئية، وكان من الضروري أن يعين النبي ﷺ من بعده، من يعرف كل الأحكام، ويعرف مورد كل حكم، ليبين حكم كل حدث جديد، في وقته المناسب.

وهكذا فعل رسول الله ﷺ.

فقد أعلن عن «قيادة الأئمة عليهم السلام» حينما صرّح قائلاً:

«إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي.

وأضاف:

ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً، وقد أنبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[1].

ولما اقترب منه ﷺ الموت، شاور علياً عليه السلام طويلاً، ثم أعلن الإمام عليه السلام:

«علمني رسول الله ألف باب من العلم، يفتح لي من كل باب ألف باب».

ومرّ بعد موت النبي ﷺ قرنان من الزمان، تعرضت الأمة خلالهما لظروف متغيرة، وأحداث لم تعهدها من ذي قبل، وكان الأئمة الاثنا عشر يكشفون خلالها عن الأحكام الإسلامية حدثاً بحدث، وحكماً بحكم. حتى تجمع لدينا من أحاديثهم أكثر مما تجمع لدينا من أحاديث الرسول الأعظم ﷺ بثلاثة أضعاف ويزيد.

ونستطيع أن نعرف ذلك بالمقارنة بين ما ورد في الصحاح الستة التي اختصت بالرواية عن رسول الله ﷺ، وبين ما ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، فمجموع ما في الصحاح لا يتجاوز أربعة آلاف رواية فقط، بينما نجد في كتاب واحد هو «وسائل الشيعة إلى مسائل الشريعة» أربعين ألف رواية من أهل البيت عليهم السلام.

---

(١) راجع كتب الحديث كلها.

وهذه الروايات، ليست روايات جانبية وإنما هي روايات تتعرض للقضايا الأساسية في الحياة، وتكشف عن أهم ما يحتاج إليه الإنسان في حياته.

ترى..

لو لم يوجد هنالك الأئمة، كم كنا نعاني من نقص في التشريع؟

ولا أدري كيف كنا نسد هذا النقص؟

هل كنا نخترع الأحكام؟ فنجعل من أنفسنا آلهة نشرع من الدين ما لم يوص به الله؟

أم كان علينا أن ننعزل عن الحياة لأننا لا نجد أحكامها في أحاديث الرسول ﷺ ولا نعرف استنباطها من القرآن؟

.. وتلك هي الضرورة التشريعية لوجود الأئمة عليهم السلام.

ووجود الأئمة عليهم السلام – من ناحية القيادة – ضروري أيضاً.

ذلك لأننا نعرف، أن الأهم من الحكم، هو نوعية تطبيقه.

الأهم من الدستور، هو كيفية ترجمته إلى الحياة.

لأن الحكم الذي لم يجر تطبيقه بعد، يبقى عاجزاً عن فرض نفسه، لأن الاحتمالات التي تعترضنا خلال تطبيقه، تضيع علينا الدرب.

إذن.. فلابد من وجود «تطبيق رسالي» للرسالة، حتى تكون عندنا ترجمة عملية لما فيها من دساتير وأحكام وخرائط سلوكية.

فنوعية تطبيق الرسالة، جزء حيوي من الرسالة لا يمكن أن تهملها الرسالة بأي سبب كان، لأن معرفة: متى يجب التطبيق؟ وكيف يجب التطبيق؟ صاحبة الكلمة الأخيرة في فاعلية الرسالة.

.. والإسلام – الرسالة الكاملة بنص القرآن – لا يمكن أن يهمل هذا الأمر الحيوي بأي شكل من الأشكال، فلابد أن يعطينا إلى جانب «الحكم» «نموذج تطبيقه» وإلا لبقي جامداً مثالياً غير مبرهن على النتائج.

فمن هم «القادة» الذين طبقوا الرسالة على أنفسهم، فأصبحوا نماذج تطبيقية، خلقهم الله، ليقول للإنسان: هكذا تكون لو طبقت الرسالة؟

إذا كانت الحياة، متغيرة، ومتشعبة، فإن الرسالة هي الأخرى لابد أن تكون كالحياة متغيرة ومتشعبة لأن الإسلام لم يكن لظرف دون آخر، ولا لزمان دون زمان.

ومن هنا كان لابد من وجود أكثر من قدوة واحدة، حتى يقدّم لنا أكثر من نموذج واحد في ظرف واحد.

فلابد من وجود «قائد حرب» و«قائد سلام» و«قائد علم» و«قائد عمل» و«قائد الظروف الطبيعية» و«قائد الظروف الخاصة».

لأن تطبيق تعاليم الحرب بحاجة إلى قدوة حربية – يكون كبوصلة لنوعية تطبيق تلك التعاليم –، وكذلك تطبيق تعاليم السلام، بحاجة إلى قدوة سلام – يكون كمنار صادق لمكان وزمان تطبيق تعاليم السلام –، وأيضاً: تطبيق تعاليم المقاومة الفكرية، بحاجة إلى قدوة مماثلة – للكشف عن الزمان الطبيعي لها. وهكذا في كل مرافق الحياة.

ولو كان عمر النبي الأكرم ﷺ غير طبيعي، أي طويلاً جداً بحيث كان يمر بأدوار وظروف متغيرة، تستوعب كل الأحكام بالتطبيق لكان لنا في تطبيقات النبي ﷺ كفاية، ولا نحتاج بعدها إلى «قدوات أخرى» ولكن بما أن الله تعالى يرفض أن يطبق الدين بشكل غير طبيعي، حتى إذا كان هذا الشكل يعني امتداد عمر نبيّه أكثر من النسبة القائمة في زمانه، فقد مات النبي قبل أن تستوعب الظروف أحكام الدين جميعاً. وأصبحت الحاجة ملحة إلى من يمثله في هذا المجال وذلك لأننا نجد أن النبي ﷺ ما مر بظروف الإمام علي عليه السلام ولا مر الإمام علي بظروف الإمام الحسن عليه السلام ولا مر الإمام الحسن عليه السلام بظروف الإمام الحسين عليه السلام وهكذا في بقية الأئمة عليهم السلام.

وبما أن ظروف هؤلاء الأئمة عليهم السلام، هي ظروف الإنسان في كل وقت وهي التي تعود بين الفينة والفينة، فإن وجود الأئمة عليهم السلام في أمثالها كان ضرورياً من أجل اعطائنا «صورة رسالية» لتطبيق الرسالة في مثيلاتها.

وفي الواقع فإن قضية وجود قدوة، هي قضية حياتية بالنسبة إلى الرسالة.

لأن الرسالة بحاجة إلى طليعة تمتص كل ما فيها من روح، وتحاول تغيير المجتمع بتلك الروح. وهذه الطليعة بحاجة – بالطبع – إلى إمام يقودها في مجاهل الحياة.

فلا نعرف في التاريخ كله أمة استطاعت أن تفعل شيئاً من دون قيادة. ولا نجد في التاريخ كله قيادة من دون قائد.

فالاقتداء بشخص ما طبيعة داخل كل فرد، وحاجة ملحة للعيش في الحياة.

فالطفل الصغير يقلد أباه، ويكون الأب خلال السنوات الأولى من حياة الطفل بمثابة البطل الذي لابد من الاقتداء به، بل أن الطفل قد يفكر أن الأب هو ربه، ولذلك ورد في الأحاديث: «إذا وعدتم أبناءكم فأوفوا بوعدكم فإنهم يرون أنكم ترزقونهم».

أما الشاب فهو يقلد الكبار.

والكبار يقلدون الكبار في التاريخ.

وهكذا.. فإن كل إنسان يقلد «شخصاً ما».

وبمقدار ما يرتفع مستوى فهم الإنسان ووعيه، بمقدار ما يرتفع مستوى القدوة التي يختارها في الحياة..

فالطفل الذي لا وعي له يقلد أباه.

فإذا وعى أكثر، أخذ يقلد شخصية أخرى أكبر من أبيه.

وإذا ارتفعت مداركه، قلّد شخصية أكبر، عالمية أو غير عالمية حسب مستوى وعيه.

كل ذلك لأن الإنسان يتأثر بأخيه الإنسان أكثر من تأثره بالفكر المجرد.

إذن.. فالحياة الطيبة بحاجة إلى وجود قدوة فيها.

وبما أن الإسلام، وهو الايديولوجية القادرة على خلق الحياة السعيدة، فإن عليه أن يقدم «قدوات» تجسد تطبيقه على وجه الأرض، لتقتدي بهم الأمة، سواء على الصعيد الفردي أم على الصعيد الاجتماعي، أم على الصعيد السياسي.

فمن هم قدوات الإسلام؟

إنهم بالطبع يبتدئون بالرسول الأعظم ﷺ: ﴿**لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾ ولكن بعد الرسول من؟

لقد سبق وأن تحدثنا عن الظروف التي مر بها النبي ﷺ، وكيف أنها لم تكن كافية لاستيعاب كل الإسلام من حيث التطبيق، فإذن لا يمكن الاكتفاء بالاقتداء بالنبي ﷺ، ولابد من وجود قدوات أخرى تكون امتداداً حقيقياً له في ظروف مختلفة.

ولذلك وجب علينا أن نقتدي بهم.

يقول الرسول الأعظم ﷺ: «أدّبني ربي فأحسن تأديبي».

أما الأئمة أنفسهم، فهم يقتدون بالنبي ﷺ، ويقتدي النبي ﷺ بالله على أساس ما ورد في الحديث: «تخلّقوا بأخلاق الله».

والمطلوب من الأمة، هو الاقتداء بالأئمة عليهم السلام أما المطلوب من الأئمة فهو الاقتداء بالرسول ﷺ وهكذا فشكل التقليد في الأمة الإسلامية يكون إذن كالتالي:

١ – الأمة تقتدي بالأئمة عليهم السلام – فيما لو كانوا في الحياة وبالعلماء الذين هم امتداد للأئمة عليهم السلام، فيما لو كانوا غائبين.

٢ – الأئمة عليهم السلام يقتدون بالرسول الأعظم ﷺ.

٣ – الرسول ﷺ يقتدي بالله عز وجل شأنه.

يقول أحد الأئمة وهو يكشف عن هذه الحقيقة: «أنتم صنايعنا، ونحن صنايع الله».

وهكذا ترتقي السلسلة في مدارج الكمال من دون أن تشوبها الأهواء الخاصة، أو «القدوات المبتدعة».

يقول القرآن الكريم:

﴿أَطِيعُوا اللهَّ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَْمْرِ مِنْكُمْ﴾.

فالإطاعة لله أولاً، ثم لمن يعيّنه الله وهو الرسول ﷺ، ثم لمن يعيّنه الرسول ﷺ وهم «أولي الأمر» أي الأئمة عليهم السلام.

فالأئمة عليهم السلام، هم القدوات التي طلب منا السير ورائها خطوة بخطوة، وحركة بحركة.

والآن..

نستطيع أن نحدد «ضرورة الأئمة» للحياة، بالأمور التالية:

١ – ضرورة التكوين، وإدارة شؤون الكون.

٢ – ضرورة التشريع، وبيان الأحكام.

٣ – ضرورة القيادة، وممارسة التغيير العملي بالقيادة.

يقول الله تعالى، في هذا المجال:

﴿وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ وَكانُوا لَنا عابِدِينَ﴾.

فالأئمة – الذين يعيّنهم الله بدليل قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ**﴾ - إنما يهدون بأمر الله، وأمر الله يعني شؤون الله، وشؤون الله هي إدارة الحياة والقيمومة عليها.

وهم يقومون بتطبيق الخير، بعد أن يتعرفوا عليه عن طريق الوحي – المباشر أو غير المباشر -: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ**﴾، فهم قدوة في المجال التطبيقي للرسالة: ﴿**وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ**﴾.

أما العنصر الذي ينفرد به الأئمة عليهم السلام، وبالاستناد إليه اختصّهم الله بكل ذلك فهو عنصر العبادة والخضوع المطلق لله، حتى لم تعد لهم إرادة في مقابل إرادته: ﴿**وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ**﴾.

يقول الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام – وهو يكشف عن ضرورة الأئمة للحياة، وعن مسؤولياتهم -:

«إن الإمامة هي منزلة الأنبياء وإرث الأوصياء، وهي خلافة الله وخلافة رسوله ومقام أمير المؤمنين وميراث الحسن والحسين».

- إن الإمامة زمام الدين.. فالأئمة هم المنفذون للشريعة، القائمون على تطبيقها.

- ونظام المسلمين.. فتنظيم شؤون الجماهير إنما هو مسؤولية الأئمة الذين يتحملون مسؤولية القيادة العامة.

- وصلاح الدنيا.. لأن الأئمة - بحكم التصاقهم بمقاييس الرسالة - يسوسون الحياة، وفق تلك المقاييس وبذلك يسعدون الحياة بمناهجهم وعدلهم.

- وعز المؤمنين.. لأن المؤمنين إنما يجدون عزتهم في ظل الأئمة عليهم السلام.

- إن الإمامة رأس الإسلام النامي.. لأن قضية القيادة جزء لا يتجزأ من الدين، وهي بذلك «رأس الإسلام» ولكن الولاء للأئمة عليهم السلام والنصح لهم والتبري من أعدائهم قضايا فرعية تدخل في فروع الدين، فالإمامة «فرعه السامي».

- بالإمام تقام الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد.. فالأئمة هم الذين يقومون بتطبيق الرسالة لأنهم العارفون الحقيقيون بها.

- وتوفير الفيء والصدقات.. فنظام المسلمين المادي متوقف على وجود الأئمة، ولذلك فإن الاقتصاد الإسلامي لا يزدهر إلا في ظل الإمام، فتوفير الفيء والصدقات الذي يعني عملية جمعها وتوزيعها بالشكل العادل، وظيفة من وظائفه دون غيره.

- وامضاء الحدود والأحكام، ومنع الثغور والأطراف.. وذلك كله جزء من صيانة الأمن الداخلي، لأنه يعني اجراء القوانين الجزائية: «إمضاء الحدود والأحكام» وحفظ استقلال البلاد: «ومنع الثغور والأطراف».

- الإمـام يحـلّ حـلال الله ويحـرّم حـرام الله ويقـيم حـدود الله، ويـذب عـن ديـن الله ويـدعو إلى سـبيل ربـه بالحكمـة والموعظـة الحسـنة والحجة البالغة.. فالمحافظـة عـلى الـدين بفـرض الحـلال حـلالاً وفـرض الحـرام حرامـاً عـلى النـاس والـدفاع عـن الـدين ضـد العـابثين وأتبـاع الشـهوات، والـدعوة إلى الـدين، بالحكمـة والموعظـة الحسـنة - أي بالطريقـة الصـحيحة - كـل ذلـك مـن شـؤون الأئمـة عليهم السلام، لأنـه خـارج في الواقـع عـن قـدرة الآخـرين إمـا لجهلهـم بالـدين جملـة وتفصـيلاً أو لخضوعهم للرغبات والشهوات.

- والإمـام «عـالم بالسياسـة».. وتعنـي السياسـة هنـا سياسـة الإدارة، وسياسـة القيـادة، وسياسـة الخـبرات والمعرفـة، وسياسـة العصر، فالإمـام هـو العـالم الحقيقـي والكامـل بالسياسـة، ولـذلك فهـو «مفروض الطاعة» لأنه الأقدر على قيادة الناس وإدارتهم.

- «قائم بأمر الله».. فهو المطبّق للدين، والقيِّم على الشريعة.

- «ناصح لعباد الله».. فهو المنظم لحياتهم بأحسن وجه ممكن.

- «حـافظ لـدين الله».. فهـو المسـؤول عـن الـدعوة إليـه في العمـق الزماني.

- «ومبلغ لدين الله».. فهو المسؤول عن الدعوة إليه في العمق المكاني[١].

- «الإمام: كالشمس الطالعة للعالم، وهي في الأفق بحيث لا تنالها الأيدي والأبصار».. فالإمام من موقعه الرفيع يعطي البشرية الدفء والضوء، من غير أن تستطيع البشرية الوصول إليه.

- «الإمام الأمين الرفيق، والوالد الشفيق، والأخ الشقيق، ومفزع العباد في الداهية».. فعلاقة الإمام بالأمة هي علاقة حب وأخوة فهو المسؤول الأمين، ولكنه مع ذلك رفيق كالوالد، وشقيق كالأخ، وإليه يرتاح الناس في المصائب.

- «الإمام: أمين الله عز وجل في خلقه، وحجته على عباده، وخليفته في بلاده، والداعي إلى الله عز وجل».. فهو يتحمل مسؤولية الخلافة، وهي أمانة الله، ولذلك فهو حجة الله، والداعي إليه..

- «الإمام هو المطهر من الذنوب، المبرء من العيوب، مخصوص بالعلم، موسوم بالحلم، نظام الدين، وعز المسلمين، وغيظ المنافقين، وبوار الكافرين».. إذن فالمقام الذي للإمام، إنما هو مقام يليق به من أجل أنه المطهر من الذنوب، المبرء من العيوب المخصوص من قبل الله بالعلم، الموسوم بالحلم.

---

(١) للمزيد من المعرفة راجع كتاب: «القيادة الإسلامية» ص٩٠-٩٤.

- «الإمام: واحد دهره، لا يدانيه أحد، ولا يعادله عالم، ولا يوجد منه بدل، ولا له مثل ولا نظير، مخصوص بالفضل كله من غير طلب منه ولا اكتساب، بل اختصاص من المفضل الوهاب، فمن ذا الذي يبلغ معرفة الإمام، ويمكنه اختياره؟ هيهات هيات».. فالقضية إذن قضية تعيين من قبل الله، على أساس «الاختصاص» وخلق المواهب من أجل ممارسة المسؤولية.

- إن الأنبياء والأئمة عليهم السلام يوفقهم الله، ويؤتيهم من مخزون علمه وحكمه ما لا يؤتيه غيرهم فيكون علمهم فوق علم أهل زمانهم في قوله عز وجل: ﴿**أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾؟ وفي قوله في طالوت (أحد الذين عيّنهم الله) ﴿**إِنَّ اللهَّ اصْطَفاهُ عَلَيْكُمْ وَزادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُّ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ وَاللهُّ واسِعٌ عَلِيمٌ**﴾[1]. وفي قوله لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿**وَكانَ فَضْلُ اللهَّ عَلَيْكَ عَظِيماً**﴾.. إن السيادة المطلقة لله عز وجل، وما دام أن الله هو الذي خلق فهو الذي يختار وإذا اختار فليس لأحد أن يرد اختياره إن كان من المؤمنين، وإذا قضى الله فإن قضاءه هو النافذ دون المؤمنين الذين ليس لهم من أمرهم الخيرة، وإذا كان الأمر كله لله بما في ذلك قضية القيادة، فإن إرادة الله

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١٣١٨ق. ص١٢٠.

وحده هي التي يجب أن تنفذ وهو الذي يصطفي ويختار ولا يكون لأي إنسان اختيار في ذلك.

- فإن قال قائل: (يقول الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أيضاً): لم جعل أولي الأمر وأمر بإطاعتهم؟

«قيل: لعلل كثيرة، منها أن الخلق لما وقفوا على حد محدود، وأمروا أن لا يتعدوا ذلك الحد لما فيه من فسادهم لم يكن يثبت ذلك ولا يتم إلا بأن يجعل عليهم فيه أميناً، يأخذهم بالوقف عندما أبيح لهم ويمنعهم من التعدي والدخول فيما حظر عليهم، لأنه لو لم يكن ذلك كذلك لكان أحد لا يترك لذته ومنفعته لفساد غيره، فجعل عليهم قيما يمنعهم من الفساد، ويقيم فيهم الحدود والأحكام»..

«إن الله هو الحاكم المطلق الذي لا يحق لأحد أن يشرع للخلق من دونه في قليل أو كثير، وبما أنه أجلّ من أن يباشر الخلق بالهداية والتشريع فإنه يبعث أنبياء يهدونهم، ويبلغونهم رسالاته، وبما أن من الواضح أن المسلمين لم يبلغوا في عهد الرسول صلى الله عليه وآله درجة من النضج الفكري، والرشد الاجتماعي، وأخيراً لم يتقمصوا الشريعة الإسلامية بصورة كاملة لا علماً ولا عملاً، لما دل على ذلك من اختلافهم الواسع في الأحكام والمعارف الإسلامية لزم أن يكون لهم إمام معصوم من بعد الرسول صلى الله عليه وآله يقوم ببيان الأحكام وشرح

المعارف حتى يكتمل نضج طائفة طليعية في الأمة تستمر بها الأمة مدى الدهر، محتفظة بالروح الإسلامية الكاملة، هذا من جانب، ومن جانب آخر لزم أن يكون لهم من يجري عليهم الأحكام حتى لا تضيع الرسالة في زحمة الأهواء المادية – وهذا ما قاله الإمام الرضا عليه السلام»[1].

– ومنها: أننا لا نجد فرقة من الفرق ولا ملة من الملل بقوا وعاشوا إلا بقيم ورئيس لما لابد لهم منه في أمر الدين والدنيا فلم يجز في حكمة الحكيم أن يترك الخلق فيما يعلم أنه لابد لهم منه ولا قوام لهم إلا به، فيقاتلون به عدوهم، ويقسمون به فيأهم، ويقيم لهم جمعتهم وجماعتهم ويمنع ظالمهم من مظلومهم..

«القيادة ضرورة للإنسان.. والتاريخ لم يهدنا إلى مثال واحد استغنى فيه المجتمع عن القيادة، ومن واجب الإسلام أيضاً أن يعين القيادة الصالحة وبما أن الدين الإسلامي أتم الشرائع كان لابد أن تكون قيادته بمستواه، وهل يتحقق ذلك في غير الإمام المعصوم وهو أعلم أهل عصره وأتقاهم؟ والخلاصة: أن المجتمع بحاجة إلى القيادة، وخير القادة المعصوم العالم المؤيد من قبل الله، فكان من

(١) الفكر الإسلامي مواجهة حضارية: ص٢٧٧.

حكمة الله ورحمته أن يعين للمسلمين هذه القيادة التي تتمثل في الإمام عليه السلام[١].

فكل أمم الأرض إنما بقيت وعاشت في ظل قيّم ورئيس، فلا يمكن أن تبقى الأمة الإسلامية، وتعيش وتتطور مع الزمن الصاعد، لولا وجود هذه القيادة، لأنها هي التي تستطيع أن تنظم أمور المسلمين حسب تطورات الأيام.

- ومنها أنه لو لم يجعل لهم (للناس) إماما قيّما أميناً حافظاً مستودعاً لاندرست الملة (الشريعة)، وذهب الدين، وغيرت السنة والأحكام، ولزاد فيه المبتدعون ونقص منه الملحدون وشبهوا ذلك على المسلمين، لأننا قد وجدنا الخلق منقوصين غير كاملين مع اختلافهم واختلاف أهوائهم وتشتت أنحائهم فلو لم يجعل لهم قيّماً حافظاً لما جاء به الرسول لفسدوا على نحو ما بينا وغيرت الشرائع والسنن والأحكام، والإيمان، وكان في ذلك فساد الخلق أجمعين»..

إن القيادة الواعية المتمثلة في الأئمة المعصومين عليهم السلام، هي القادرة على حفظ الدين من الزيادة فيه، وتغييره حسب الأهواء والرغبات.. ولولا وجود هذه القيادة «لديّن» الناس أهواءهم، وبدّلوا الشرائع والسنن لكي تتفق مع ما يصبون إليه، خاصة وأن

---

(١) المصدر: ص٢٧٨.

الناس يختلفون في المصالح، وهذا يدعوهم إلى جر الدين – من قبل كل فريق – إلى جانبه، ومن ثم المحاربة بالدين، والتغيير فيه إلى حد التشويه، وبذلك يضربون رسالية الدين، ويحولونه إلى مجرد خرافات بشرية لا رأس لها ولا ذيل.

وفي حوار بين أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام وهو هشام بن الحكم، وبين رجل شامي لم يكن يؤمن بضرورة الأئمة عليهم السلام للحياة، قال هشام:

– الناس يختلفون في الدين، فإلى من يرجعون لرفع اختلافهم؟

– رسول الله.

– فبعد رسول الله من؟

– الكتاب والسنة.

– فهل نفعنا اليوم الكتاب والسنة في رفع الاختلاف عنا؟

– نعم..

– فلم اختلفت أنا وأنت، وجئت إلينا من الشام لتخالفنا؟

– فسكت الرجل الشامي، فقال له هشام:

– ما لك لا تتكلم؟

– إن قلت: لم نختلف كذبت. وإن قلت: إن الكتاب والسنة يرفعان عنّا الاختلاف أبطلت، لأنهما يحتملان الوجوه، وإن قلت:

قد اختلفنا وكل واحد منا يدعي الحق لم ينفعنا إذن الكتاب والسنة[١].

وهذا الحوار يكشف لنا عن ضرورة أخرى لوجود الأئمة عليهم السلام، هي ضرورة حسم الخلافات، لأن الناس بحاجة إلى مرجع ينتهي إليه كل خلاف، ذلك أن الناس لا يزالون مختلفين في كل الأمور وهذا الخلاف يؤدي بهم إلى الشقاء الدائم، فلولا أن الله تعالى يصطفي من عباده من يحسم لهم الخلاف، لسلب الناس سعادتهم بدوام الخلاف بينهم واقتضى ذلك أن ينقض غرضه الذي خلق لأجله الناس وهو الفلاح، وتعالى الله الحكيم أن يفعل شيئاً لغاية محددة ثم لا يوفر الوسائل التي تحققها[٢].

ماذا قدّم الأئمة للحياة؟

عرفنا أن وجودهم ضروري.. ولكن ماذا قدّموا للحياة؟

إننا نجد أن مجموع ما تركه الأئمة عليهم السلام الاثنا عشر هو تراث فكري. بينما قدم غيرهم أشياء مهمة، وخدموا البشرية خدمات كبيرة فمثلاً: قدّم المخترعون والمكتشفون أشياء ملموسة وضرورية

---

(١) الفكر الإسلامي: ص٢٨٠.

(٢) المصدر.

للحياة، فهل علينا أن نعتقد أن الأئمة عليهم السلام – رغم ذلك – أعظم من المخترعين والمكتشفين مثلاً وأكثر ضرورة للحياة؟

وإذا أردنا أن نشرح السؤال بالتفصيل، فإننا نقول:

أن «باستور» اكتشف الميكروب، وبذلك أتاح للإنسان القضاء على أمراض كثيرة كانت تفتك به، عن طريق اكتشاف مضادات الميكروبات..

وأن «أديسون» اكتشف الكهرباء، واخترع «اللمبات» وبذلك أتاح للإنسان تبديل الليل إلى نهار، وتشغيل المكائن واختراع ألف حاجة وحاجة..

وأن «كريستوف كلومبس» اكتشف القارة الأمريكية، وبذلك أعطى الإنسانية فيضاناً من الخير والنعيم..

وأن «نابليون» اخترع الأساليب الحربية المختلفة وبذلك أتاح للإنسان تقنين الحرب..

فماذا قدّم لنا الأئمة عليهم السلام؟

ماذا قدّم الإمام زين العابدين عليه السلام، مثلاً، في مقابل ما قدّمه «باستور»؟

وماذا قدّم الإمام الهادي عليه السلام، مثلاً، في مقابل ما قدّمه «أديسون»؟

وماذا قدّم الإمام موسى الكاظم عليه السلام، مثلاً، في مقابل ما قدّمه «باستور»؟

لو لم يكن «باستور»، لم نكن نملك الآن معالجة مرضانا..

ولو لم يكن «أديسون»، لم نكن نملك الآن الكهرباء ولا استطعنا أن نشغل الآلات والحاجيات المختلفة..

ولو لم يكن «كلومبس»، لم نكن نعرف القارة الأمريكية وخيراتها..

أما لو لم يكن الأئمة عليهم السلام، فماذا كان ينقصنا؟

والجواب:

قبل كل شيء لابد أن نعرف – على ضوء ما سبق – أن الأئمة عليهم السلام هم أصحاب رسالة حياتية تهدف إلى خلق المجتمع السليم، الذي ينمي الطاقات، ويشغل القدرات، ويسعد الإنسان.

إذن فدور الأئمة عليهم السلام هو دور الرسالة، والتحرير، والتنظيم، والعدالة، وهو دور لا يستطيع أن يقوم به فرد من الأفراد مهما كان عظيماً.

فالأئمة عليهم السلام – كالرسول صلى الله عليه وآله – يقومون بوضع البرامج الاجتماعية والفردية التي تؤدي إلى سعادة الإنسان، وهذه البرامج هي التي تخلق المخترعين والمكتشفين بالعشرات، بينما لا يستطيع المخترعون والمكتشفون وضع هذه البرامج.

فـإذا لم يكـن هنالـك الأئمـة عليهم السلام، لكـان علينـا أن نتيـه في الفـوضى والجريمة رغم وجود «فيضان» من الاكتشافات والاختراعات.

أمـا إذا لم يكـن هنالـك «أديسـون» و«باسـتور» و«نـابليون» لجـاء أناس آخرون واكتشفوا ما اكتشفه هؤلاء..

فمهمـة الأئمـة عليهم السلام، أهـم مـن مهمـة المخترعـين والمكتشـفين، لأن مهمـة المخـترع: الاخـتراع، ومهمـة المكتشـف: الاكتشـاف. بينما مهمـة الإمام هي: كيفية استعمال الاختراع.

فمهمـة مخـترع السـلاح مـثلاً هـي اخـتراع أسـلحة الفتـك بينما مهمة الإمام تعيين موضع استعمال تلك الأسلحة.

مهمـة الأئمـة عليهم السلام «أنسـنة» الإنسـان، ومهمـة المخـترع والمكتشـف الكشف عن الطاقات الكامنة في الحياة.

وواضـح أن إنسـانية الإنسـان أهـم بكثـير مـن معرفـة الطاقـات واختراع الآلات.

إن الآلات تعطـي للإنسـان القـدرة، فـاختراع الأسـلحة تجعـل السـيف صـاروخاً والرصـاص قنابـل والحصـان طـائرة فـانتوم وقـوة العضـلات ذرة والعـين المجـردة، راداراً والمحاسـب العـادي عقـلاً الكترونياً وشعلة النار قنابل نابالم.

هذه هي عملية المخترع.

أما الإمام فهو يعطي الوجدان للإنسان، الإمام يمنع من استعمال الصاروخ في الفتك بالأبرياء، ويمنع من تساقط القنابل على رؤوس الأطفال، ويحول دون استعمال قنبلة النابالم في حرب قذرة.

«العلم» و«الاختراع» و«التكنولوجيا» ترفع من مستوى حيوانية الإنسان، وتعطيه أنياباً ضخمة، ولكن النبي والإمام يرفعان من مستوى إنسانية الإنسان، ويعطيانه وجداناً قوياً..

ولو مثلنا الحياة بإنسان، فإن العلم يكون موضع عينيه، والاختراع يكون موضع رجليه ويديه، والتكنولوجيا موضع عضلاته، أما الإمام فيكون موضع عقله وضميره.

وما تنفع العينان والرجلان واليدان والعضلات من دون العقل؟

ما قيمة العين القوية في وجه مجنون؟

وما قيمة العضلات العملاقة في زنود أحمق؟

ثم.. ما فائدة من يقوي لك عضلاتك على حساب عقلك؟

إن الجسد المغمى عليه الفاقد للوعي، إنما يحتاج قبل أي شيء إلى الوعي، ولا حاجة به إلى فراش وثير، وغرفة جميلة، وملك عريض.

إن المخترعين يأتون إلى جسد مغمى عليه فيمشطون شعر رأسه، ويصنعون له الفراش الوثير، والغرفة الجميلة، أما الإمام فيذهب إلى رأسه ليرجع إليه وعيه.

يقول القرآن الكريم: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ..**﴾.

وطبيعي أن العيش بالوعي، من دون امتلاك فراش وثير، وغرفة جميلة، أفضل ألف مرة من العيش في فراش وثير وغرفة جميلة ولكن من دون الوعي.

إن مهمة الأئمة عليهم السلام هي ايجاد الوعي لدى الإنسان، أما الأشياء الأخرى فإن مهمة ايجادها موكولة إلى الإنسان ذاته لأن قضية الوعي هي القضية الأساسية الخارجة عن قدرة الإنسان، أما قضية الاختراعات والاكتشافات فهي قضايا كمالية، يمكن القيام بها من قبل أي إنسان.

انظروا إلى الإمام علي عليه السلام كيف يرش النور على طريق الوعي، ويوقظ الضمير المغمى عليه، ويقول:

«رحم الله امرءً سمع حكماً فوعى، ودعي إلى رشاد فدنا، وأخذ بحجزة (بمعطف) هاد فنجا، راقب ربه، وخاف ذنبه، قدم خالصا، وعمل صالحا، اكتسب مذخوراً، واجتنب محذوراً، ورمى غرضا (استهدف الحق) واحرز عوضا، كابر (صارع) هواه، وكذب مناه، جعل الصبر (على تحمل الصعاب) مطية نجاته، والتقوى عدة وفاته، ركب الطريقة الغراء (مشى في طريق النور) ولزم المحجة البيضاء (منهج الحق والعدل) اغتنم المهل (المهلة التي للإنسان في الحياة) وبادر الأجل (لم يترك للموت أن يفاجئه على المعصية) وتزود من العمل»[1].

.. وكذلك يفعل الإمام الحسن عليه السلام، ويقول:

«الناس في دار سهو وغفلة، يعملون ولا يعلمون، فإذا صاروا إلى دار يقين يعلمون ولا يعملون..».

ويقول:

«عجبت لمن يفكر في مأكوله، كيف لا يفكر في معقوله (مصادر تفكيره) فيجنب بطنه ما يؤذيه ويودع صدره ما يرديه».

---

(١) نهج البلاغة: ص١٣٠.

ويقول:

«يا بن آدم.. لم تزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك، فخذ ما في يديك لما بين يديك (لمستقبلك) فإن المؤمن يتزود (من الدنيا للآخرة) والكافر يتمتع[1].

.. وكذلك يفعل الإمام الحسين عليه السلام، ويقول:

«أوصيكم بتقوى الله، فإن الله قد ضمن لمن اتقاه أن يحوله عما يكره إلى ما يحب ويرزقه من حيث لا يحتسب.

فإياك أن تكون ممن يخاف على العباد من ذنوبهم ويأمن العقوبة من ذنبه، فإن الله تبارك وتعالى لا يخدع عن جنته، ولا ينال ما عنده إلا بطاعته»[2].

.. وكذلك يفعل الإمام زين العابدين عليه السلام في أدعيته، ويقول مثلاً:

«اللهم صل على محمد وآله، ولا ترفعني في الناس درجة إلا حططتني عند نفسي مثلها، ولا تحدث لي عزاً ظاهراً إلا أحدثت لي ذلة باطنة عند نفسي بقدرها.

---

(١) الف باء الإسلام، للمؤلف: ص١٨٩.

(٢) المصدر.

اللهم صل على محمد وآله، ومتعني بهدى صالح لا أستبدل به، وطريقة حق لا أزيغ عنها، ونية رشد لا أشك فيها.

اللهم صل على محمد وآله، وسددني لأن أعارض من غشّني بالنصح، وأجزي من هجرني بالبر، وأثيب من حرمني بالبذل، وأكافئ من قطعني بالصلة، وأخالف من اغتابني إلى حسن الذكر، وأن أشكر الحسنة، وأغضي عن السيئة.

اللهم صل على محمد وآله، وحلّني بحلية الصالحين، وألبسني زينة المتقين في بسط العدل، وكظم الغيظ وإطفاء النائرة، وضم أهل الفرقة، وإصلاح ذات البين، وإنشاء العارفة، وستر العائبة (المنقصة) ولين العريكة، وخفض الجناح، وحسن السيرة، وسكون الريح، وطيب المخالقة، والسبق إلى الفضيلة، وايثار التفضل وترك التعيير (الشماتة) والافضال على غير المستحق، والقول بالحق وإن عز، والصمت عن الباطل وإن نفع، واستقلال الخير وإن كثر من قولي وفعلي»[1].

.. وكذلك فعل كل الأئمة عليهم السلام، حيث قاموا ببناء الحياة على أسسها السليمة. بينما قام المخترعون والمكتشفون بتلوين الحياة..

---

(١) المصدر: ص٢٠٣.

وواضح أن البناء، يأتي قبل التلوين، وأن البناء قد يستغني عن التلوين، بينما لا يستغني عن البناء.

إن الإمام زين العابدين عليه السلام – مثلاً – أعطى تعاليم لإضاءة الوجدان في الإنسان، ولكن أديسون أعطى كهرباء لإضاءة بيته..

وما قيمة بيت منور إذا كان الوجدان مظلماً؟

إن كل الذين عاشوا قبل أديسون، وأعطوا الإنسانية تراثاً إنسانياً رائعاً، إنما كانوا يملكون وجدانات منورة، بينما الذين يقتلون البشرية اليوم، يملكون بيوتاً منورة، وملونة، ورائعة، ولكنهم يفقدون الوجدانات المنورة.

وأيهما أكبر دوراً: الذي يضيء الوجدان أم الذي يضيء البيوت؟

أيهما أعظم باستور الذي اكتشف الميكروب، أم الإمام الذي «اكتشف» أمراض الأخلاق؟

وأيهما أعظم نابليون الذي قنن الحرب، أم الإمام الحسن الذي وضع للحرب أهدافاً مقدسة؟

إن العلم الحديث – بكل اختراعاته واكتشافاته وفنونه – لم يزد الإنسان سعادة، ولكنه زاده شقاءً، لأنه علم بلا إمام، بينما عندما يكون الإمام – بتعاليمه وقيمه ومواقفه – تكون السعادة وإن لم تكن فيها كماليات..

والإنسان قبل العلم بحاجة إلى «أخلاق إنسانية»، وقبل الاكتشاف بحاجة إلى «وجدان».

وقبل الاختراع بحاجة إلى «طريقة استعماله».

إذ ما قيمة العلم الذي يؤدي إلى الفتك بالإنسان؟

وما قيمة الاكتشاف الذي يؤدي إلى صنع قنبلة ذرية تقتل في ساعة واحدة ٧٠ ألف إنسان؟

وما قيمة الاكتشاف الذي يؤدي إلى صنع قنابل جرثومية تصيب في نصف نهار نصف مليون شاب بالشلل، أو تحرمهم من نعمة العين[1]؟

الإنسان: أهم من الاختراع، وعلينا أن نقيس كل اختراع بمدى خدمته للإنسانية، فإذا كان الاختراع مجرد سلاح، فإن الأهم منه هو الصفة الإنسانية التي يعطيها الأئمة لمن يحمله.

وضرورة الأئمة وتفوقهم على كل المخترعين والمكتشفين وكل رجال التاريخ نكتشفه من خلال ما يتركونه من تأثير على المجتمع.

---

(١) بالاعتماد على اكتشافات باستور وأديسون ونابليون وأمثالهم اخترع الإنسان الأسلحة الجرثومية، والقنابل المحرقة، وبذلك استطاع أن يقتل خلال أقل من خمسين عاماً أكثر من مائة مليون إنسان.

فالأئمة بتاريخهم العظيم.. وصفاتهم النبيلة.. ومواقفهم الحكيمة، يتركون أكبر الأثر على المجتمع الذي يقرأهم.

ولكن ماذا يترك المخترعون والمكتشفون من آثار؟

ماذا يترك نابليون – الذي كان يلهث وراء شهواته – من أثر على مجتمع الإنسان؟

وماذا يترك باستور؟

وأديسون؟

وأمثالهم؟

إننا نستطيع أن نبني مجتمعاً صالحاً يتمتع فيه الإنسان بحقوقه الطبيعية، عن طريق محاولة الاقتداء بالأئمة عليهم السلام..

ونستطيع أن نخلق جيلاً مخلصاً، يتمتع بالخلق الإنساني الرفيع، ويبني، ويعمل من أجل كرامة الإنسان، بمحاولة اتباع الأئمة عليهم السلام..

فالأئمة عليهم السلام، هم قدوات عملية.. قبل أن يكونوا أصحاب «نظريات»، وحملة حقائق.

والأئمة عليهم السلام، نماذج تطبيقية للإنسان الصادق مع ربه، المنسجم مع فطرة الحياة، المخلص للحق والعدل.

ولذلك.. فإنهم ضرورة.

بل وأكثر من ضرورة، لأن الحياة بدونهم جحيم، شقاء، موت.

إننا قد نستطيع أن نتعرف على عظمة «دور» الأئمة في خلق مجتمع الإنسان، من خلال التعرف على «بعض» قضايا الأئمة، وتاريخهم، وحكاياتهم..

وإليك مثالاً على ذلك..

الإمام علي عليه السلام كان في ربيعه الخامس والعشرين عندما جنّدت قريش جيشاً ضخماً لمحاربة النبي صلى الله عليه وآله وواصل هذا الجيش – الذي كان يضم الكثير من المرتزقة من يهود ونصارى وطوائف أخرى – حتى وصل إلى مشارف المدينة. فحاصرها حصاراً عسكرياً منيعاً، وأرسل فارسه العظيم «عمرو بن عبد ود العامري» وهو البطل الذي كانت تتحدث عنه البلاد بكثير من الاعجاب، فوقف وسط ميدان المعركة يطلب من يبارزه.

نادى النبي صلى الله عليه وآله في قومه:

من لهذا الرجل؟

وكرر النداء، مرة ومرتين وثلاث، وكان علي عليه السلام هو الذي يجيب، مشيراً إلى صدره.

أنا يا رسول الله.

فأمره النبي ﷺ ليتقدم – بعد أن لف العمامة على رأسه وأعطاه سيف «ذو الفقار» – ولمّا التقى علي عليه السلام بعمرو، قال له عمرو:

من أنت؟

وجرى بينهما الحوار التالي:

– أنا علي بن أبي طالب.

– لقد كان أبوك نديماً لي، وصديقاً فارجع فإني لا أحب قتلك!

– .. لكني أحب قتلك.

– إني لأكره أن أقتل الرجل الكريم مثلك. فارجع وراءك خير لك.

– كان عمرو يتحدث بنفسية جاهلية، حينما اضاف:

ما آمن ابن عمك (يعني النبي)، حين بعثك إليّ أن اختطفك برمحي هذا، فأتركك شايلاً بين السماء والأرض، لا حي ولا ميت؟

– قد علم ابن عمي أنك إن قتلتني دخلت أنا الجنة، ودخلت أنت النار، وإن قتلتك فأنت في النار وأنا في الجنة.

– كلتاهما لك يا علي؟ تلك إذن قسمة ضيزى!

– إن قريشاً تتحدث عنك أنك قلت: لا يدعوني أحد إلى ثلاث إلا أجيب، ولو إلى واحدة منها؟

– أجل..

- فإني أدعوك إلى الإسلام.

- دع هذا!

- فإني أدعوك إلى أن ترجع بمن تبعك من قريش إلى مكة، فإن يك محمد صادقاً فأنتم أعلى به عينا، وإن يك كاذباً كفتكم ذؤبان العرب أمره.

- إذن تتحدث نساء قريش عني: أن غلاماً خدعني، وينشد الشعراء فيّ أشعارهم أني جبنت، ورجعت على عقبي من الحرب، وخذلت قوماً رأسوني عليهم.

- فإني أدعوك إلى الحرب راجلاً..

واتفقا على الحرب بالسيف وكانت النتيجة أن عمراً سقط على الأرض، بسبب خدعة حربية من الإمام علي عليه السلام، فقد رأى أنه في موقع حربي غير مناسب نظراً لطول عمرو، وقصره هو.. فصاح بعمرو:

أرجلان على واحد؟

وظن عمرو، أن أحد أصحابه قد لحقه من أجل المساعدة، فالتفت إلى ورائه، بينما كانت ضربة علي عليه السلام القاضية تتهاوى على عاتقه.

وتمت الجولة بسرعة عمرو، حيث جلس الإمام عليه السلام على صدره، ليقطع رأسه.

ولكن عمراً – الفارس الذي كانت تتحدث عنه البلاد – أخذته العزة بالإثم، فتفل في وجه الإمام، وكان باستطاعة الإمام أن يرد التفلة، بأكثر منها، فهو الجالس على صدره، ولكنه آثر الامتناع عن إظهار أي رد فعل فقام من مكانه، وأخذ يتمشى في الساحة، ثم رجع وقطع رأس الرجل..

لماذا تمشى بعض الوقت، ولم يبادر إلى قتله؟

لأنه ثار من تفلة الرجل، فدخله الغضب، فأبى أن ينجز عملاً بدأه لله، من أجل اسكان غضبته الخاصة..

ولما هدأ غضبه – النابع من إساءة الرجل إليه شخصياً – عاد فقطع رأسه لله..

ترى..

كم ستكون درجة اخلاص المجتمع الذي يتخذ من مثل هذا الإمام قدوة له في الحياة؟

الإمام الحسن بن علي عليه السلام – الذي بويع له بالخلافة بعد الإمام علي عليه السلام، وخانه قواده، فاضطر إلى عقد معاهدة صلح مع معاوية – كان يتمشى في طرقات المدينة، إذ تعقبه رجل من الشام، خدعته

دعايات معاوية فجعل يلعن الإمام بعنف، واستمر يلعن لحظات، حتى إذا قرب وسكت أقبل إليه الإمام والبسمة الرقيقة تستريح على شفتيه وقال له:

«أيها الشيخ.. أظنك غريبا، ولعلك شبّهت، فلو استعتبتنا أعتبناك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا حملناك.

وإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت عرياناً كسوناك، وإن كنت طريداً آويناك، وإن كانت لك حاجة قضيناها لك..».

كان الرجل يستمع إلى الكلمات، والدهشة تعقد لسانه، فكيف يرد الإمام لعناته التي صبها بعنف بالتماس قضاء حوائجه، في لين ما وراءه من لين؟

وانهارت أعصابه، فبكى وقال:

أشهد أنك خليفة الله في أرضه، والله أعلم حيث يجعل رسالته..

ترى:

أي خلق يتمتع به ذلك الشعب الذي يجعل هذا الإمام نصب عينيه في الحياة؟

الإمام الحسين بن علي عليه السلام، كان محاطاً بمائة ألف رمح متعطش لدمائه الزكية، وكان معه ١٨ شاباً من أنبل شباب الأرض، وكان معه أهل بيته.

طلب منه أن يبايع السلطان الذي تربع على كرسي الحكم: يزيد، في مقابل «العفو» عنه، واعطائه مناصب جيدة في الحكم.

وكان يعرف أن رفضه لهذا العرض يعني الموت، فرفض.

وخاض حرباً مقدّسة، كان يعرف مسبقاً كافة نتائجها، وقدم ٧٢ ضحية خلال نصف نهار، ثم تقدم هو ليلحق بهم، في عزم وثبات، وهو يردد:

سأمضي.

وما بالموت عار على الفتى إذا ما نوى خيراً وجاهد مسلما!

حاصروه – وكان وحيداً آنذاك – ولوّحوا بوجهه الرماح الشرسة، والسيوف الغادرة، وطلبوا إليه أن يرضى بالبيعة: أن يضع يده في يد يزيد لبضع لحظات، ولكنه أبى.

ضيقوا عليه الحصار، فشدد من تصلبه.

رشقوه بالحجارة، فرشقهم بالثبات.

هجموا عليه من كل جانب: بالسيف، بالرمح، بالحجارة، بالعصي، بالتراب، فثبت كأنه الجبل يتحمل كل ذلك من أجل ذلك الإيمان الذي زرع في قلبه.

قالوا له:

الآن بايع..

فقال لهم:

لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرّ لكم إقرار العبيد.

وعندما صرع على الرمال الحمر، جلسوا على صدره - وهو لا يزال في الحياة – ووضعوا الخنجر على وريده وقالوا له:

بايع..

فقال – مخاطباً ربه -:

تركت الخلق طراً في هواكا وأيتمت العيال لكي أراكا

فقتلوه، وطافوا برأسه في البلاد وسبوا نساءه وأطفاله، كما تسبى نساء الترك والديلم..

ترى:

كم يكون صمود الأمة التي تعبّ من صمود هذا الإمام؟

وكم يكون تشوقها للالتصاق بالعدالة التي تحملها على الأكتاف، بالموت من أجلها؟

الإمام علي بن الحسين عليه السلام، كان يخرج في الليلة الظلماء وهو يحمل على جسمه النحيل جداً أكياس القمح والطحين، ومعه الدراهم والدنانير، فيأتي إلى البيوت الفقيرة المتواضعة التي لا يسأل عنها أحد، ويدق الأبواب، حتى إذا خرج منها مسكين فقير، دفع إليه المال والقمح والطحين، وهو متلثم، قد غطى وجهه، فإذا سأله صاحب البيت:

من أنت أيها المحسن الكريم؟

أجابه، برقة الأب العطوف:

عبد من عبيد الله..

ترى:

كيف سيتعامل ذلك الإنسان الذي يقتدي بهذا الإمام مع الفقراء والمساكين؟

بالطبع لن يكون له موقف إلا كمواقفه، فهو الذي كان يقف للسائل إذا أتاه، ويرحب قائلاً:

مرحباً بمن يحمل زادي إلى الآخرة!.

الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام كان بدين الجسم، مكتنز الأطراف، رآه بعض المتصوفة وهو متكئ على غلامين يتصبب عرقاً، وكان الوقت صيفاً ويبدو عليه آثار التعب والإرهاق.

فقال له الصوفي:

أصلحك الله: شيخ من شيوخ قريش في هذه الساعة، على مثل هذه الحالة، في طلب الدنيا؟

وأضاف:

أرأيت لو جاء أجلك وأنت على هذه الحالة ماذا كان حالك؟

فأجابه الإمام عليه السلام، وهو يكشف عن قيمة العمل:

لو جاءني الموت وأنا على هذه الحالة، لجاءني وأنا في طاعة من طاعات الله، أكف بها نفسي وعيالي عنك وعن الناس. وإنما كنت أخاف لو جاءني الموت وأنا على معصية من معاصي الله.

فقال له الصوفي، وقد عاد إليه رشده:

صدقت – يرحمك الله – أردت أن أعظك فوعظتني[1].

ترى:

كم ستكون قيمة العمل لدى الأمة التي تتبع خطوات هذا القائد؟

كانت تلك نماذج من مواقف بعض الأئمة في الحياة، وهي تكفي كعينات لمواقفهم جميعاً، ومدى التأثير الذي يتركونه على الأمة.

فأي مخترع أو مكتشف يمكن أن تكون له مواقف كتلك، وأي مخترع أو مكتشف يمكن أن يترك تأثيراً مثل تأثير الأئمة؟

إن العلم قد يؤدي بصاحبه إلى التكبر، والفخفخة، والتعالي، وكذلك الاختراع، والاكتشاف، أما «قدوة الحياة» فهو دائماً متواضع ودائماً بسيط، ولذلك فإنه دائماً «معطاء».

وهذه أيضاً اجابة بسيطة على سؤال:

ماذا قدّم الأئمة عليهم السلام للحياة؟

---

(١) كان هذا الرجل يتبع بعض المذاهب الصوفية التي تسربت إلى الإسلام، والتي كانت تدعو إلى السلبية والانطواء، وتزعم أن أفضل ساعات الإنسان هي التي يعيش خلالها بعيداً عن متطلبات الحياة، فلما رأى الإمام عليه السلام يسعى في طلب الرزق هاله ذلك وجاء لينصحه، بيد أن الإمام كان يمثل – بدوره – فلسفة الإسلام الايجابية التي تدعو إلى بناء الحياة الفاضلة، والمثابرة في سبيل ذلك حتى في حالات شاذة. للمزيد من التفاصيل راجع: «الإسلام ثورة اقتصادية».

الفصل الثاني

إمامان

الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام يشكلان وحدة حركية، في تصرفاتهما خلال الحياة الفردية لكل منهما.

وهما، رغم التباين في مواقفهما تجاه السلطات في زمانيهما، ملتصقان ببعضهما البعض، كالتصاق النور بالنهار والنهار بالنور، ولذلك فإنك لا تستطيع أن تتحدث عن أي واحد منهما من دون أن تتحدث عن الآخر.

إنهما فصلان في دفتر الرسالة، كل فصل يكمل الفصل الآخر، وبدون قراءتهما معاً لا يمكن فهم أي منهما.

فمفتاح فهم ثورة الحسين عليه السلام، يكمن في فهم صلح الإمام الحسن عليه السلام والعكس بالعكس.

وليس القصد استعراض «ما حدث» بمقدار ما هو القصد فهم «ما حدث».

وإذا أردتُ أن أحدد مهمتي في هذه العجالة فإن عليّ أن أقول إنني أحاول شرح فلسفة الصلح، والشهادة، في حياة كل من الإمامين اللذين قال عنهما رسول الله صلى الله عليه وآله:

«الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا».

أرجو الله أن أكون قد وفّقت لذلك.

لماذا الاختلاف في الموقف؟

يتساءل كثيرون:

لماذا صالح الإمام الحسن عليه السلام معاوية؟

ولماذا ثار الإمام الحسين عليه السلام على يزيد؟

مع أن كلاً من معاوية الأب، ويزيد الابن كان يهدف ما استهدفه الآخر.

كان معاوية امتداداً لأبي سفيان في المؤامرة على حياة الرسالة.

وكان يزيد امتداداً لمعاوية في المؤامرة على القيادة الرسالية.

ولم يكن يفصل الأب عن الابن إلا الزمان فقط.

بمعنى أنه لو كان يزيد في مكان معاوية، لما فعل سوى ما فعله معاوية، والعكس بالعكس أيضاً.

إذن:

فلماذا اختلف موقف الإمام الحسين عليه السلام، عن موقف الإمام الحسن عليه السلام؟

إذا كان «الحفاظ على وحدة الأمة» و«ضرورة الابقاء على التراث من الضياع» و«حقن دماء المسلمين» هو المطلوب، فلماذا ثار الحسين عليه السلام على يزيد؟

وإذا كانت «الثورة» ومحاولة فرض «التغيير بالعنف المقدس» و«تفجير المتناقضات من أجل كنسها» هو المطلوب فلماذا صالح الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية؟

إننا لا نشك في اتحاد موقفي معاوية ويزيد. فكلاهما كان متآمراً على الإسلام، بدليل أن ما قاله يزيد عندما وضع رأسه الحسين عليه السلام أمامه:

لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء ولا وحي نزل
ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلّوا واستهلّوا فرحا ... ثم قالوا يا يزيد لا تشل

قال أكثر منه معاوية، وذلك عندما كان يتمشى في الغرفة مع ولده يزيد، وهو يطوي الأيام الأخيرة من حياته، وكان – إذ ذاك – يترك وصاياه إلى يزيد، فسمع صوت المؤذن يقول – فيما يقول –:

أشهد أن محمداً رسول الله.

فامتلأ غيظاً وحنقاً، وبدا كالمجنون يضرب بيد على يد، ويقول:

ملك أخو تيم (أبو بكر) فعدل، وفعل ما فعل فهلك ومات. فما عدا أن هلك ذكره إلا أن يقول قائل: أبو بكر ثم ملك أخو عدي (عمر) فعدل، وهلك فهلك ذكره إلا أن يقول قائل: عمر. ثم ملك

أخونا (عثمان) فعدل وهلك فهلك ذكره إلا أن يقول قائل: عثمان وهذا ابن أبي كبشة (النبي) يصاح به في المآذن. لا والله إلا دفنا دفنا، لا والله إلا دفنا دفنا، لا والله إلا دفنا دفنا»[1].

فلماذا بعد هذا كله اختلف موقفا الحسن والحسين عليهما السلام منهما؟

سؤال طالما أقلق بال الدارسين لحياة معاوية ويزيد، وحياة الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام.

وقبل أن نجيب على هذا السؤال لابد أن نستعرض عدة ملاحظات، تبدو ضرورية لفهم مواقف أي إمام في أي دور من أدوار التاريخ.

الملاحظة الأولى:

إن بعض الناس يحاول أن يتهرب من مسؤولية البحث عن «خلفيات الأحداث» بإصدار حكم «غيبي» قاطع وسريع عليها.

فإذا كان المفروض أن يتعرف الإنسان على أهداف الإمام الحسن عليه السلام من الصلح مع معاوية، فإنه يتهرب من ذلك كله بقوله:

إن المطلوب من الإمام كان هو الصلح، وأن الله قد أمره بذلك، والإمام كان أعرف!

---

(١) راجع ابن أبي الحديد و«مروج الذهب».

وإذا كان المفروض أن يتعرف الإنسان على أهداف الإمام الحسين عليه السلام من الثورة على يزيد فإنه يتهرب من ذلك بقوله:

إن المطلوب من الحسين – منذ الأزل – كان هو: الثورة، وأن الله قد أمره بذلك، والإمام كان أعرف!

ونحن لا نشك في كل ذلك فالأئمة – كما ذكرنا في الفصل السابق – لا يتحركون إلا وفق إرادة الله ومشيئته، ولكننا نتساءل – ومن حقنا ذلك –:

لماذا كان المطلوب من الإمام الحسن عليه السلام الصلح مع معاوية، ولماذا كان المطلوب من الإمام الحسين عليه السلام الثورة على يزيد؟

إن الحسن والحسين عليهما السلام «إمامان» قبل أن يكونا «حسناً وحسينا». والإمام يعني: «القدوة»، وعلينا – كأفراد يطلب منا الاقتداء بهما – أن نتعرف على الخلفيات الدافعة للصلح، والخلفيات الدافعة للثورة.

علينا أن نعرف الظروف الموضوعية التي تم فيها الصلح، أو الثورة لكي نصنع «الصلح» أو «الثورة» في مثيلاتها.

ولو لم يكن علينا ذلك لعجزنا عن تحقيق «المطلوب منا» في أية ظروف، لأننا نفتقد «القدوة» في ذلك وهذا يعني ببساطة: أننا نسقط «الإمام» عن مقامه كقدوة، ونضعه على الأبراج العاجية، وفي قوالب محكوم عليها سلفاً، وهذا يعفينا من الاقتداء بهم.

إننا إذا أجبنا على سؤال:

لماذا صالح الإمام الحسن عليه السلام أو لماذا ثار الإمام الحسين عليه السلام، إذا أجبنا على ذلك بأنه كان أعرف، لكان لنا أن نتساءل:

إذا كان الإمام – أي إمام – أعرف بمواقفه، ولم يكن علينا أن نعرفها، فكيف يطلب منا الاقتداء به ما دمنا لا نعرف شيئاً مما يعرف؟

إن إصدار الأحكام القطعية، سهل ومريح دائماً.

ولكن الصعب هو محاولة تبين درجات الظل في كل موقف.

الصعب هو محاولة الكشف عن الخلفيات، لأن ذلك يضعنا أمام مسؤولياتنا وهي مسؤوليات يبدو أن كثيراً منا يحاول التهرب منها.

الملاحظة الثانية:

إن أهم نقطة يجب أن نضغط عليها في دراسة أي إمام هي أن نحاول معرفة ما يعطينا من دروس في حياتنا العملية، خطوة بخطوة.. وموقفا بموقف.

فالأئمة عليهم السلام ليسوا مجرد رجال تاريخيين، حتى نكتفي منهم بمعرفة حياتهم، وشخصياتهم، ومواقفهم.

وإنما الأئمة قادة حياة، لا يمكن أن يكتفي الله منا إزاءهم بمجرد التعرف عليهم، وعلى حياتهم، من أجل التمتع بحكاياتهم.

وإنما يطالبنا بأن نفعل كما فعلوا، أن نثور كما ثاروا، وأن نصالح كما صالحوا، وأن نقاوم كما قاوموا.

يطالبنا بأن نتحول مثلهم إلى «أئمة» - مع فارق الدرجات طبعاً -.

ولذلك: فإن فهم ظروفهم التي اتخذوا فيها مواقفهم الخاصة، أهم بكثير من فهم تلك المواقف، لأن الموقف يبقى عاجزاً عن فرض نفسه كموقف، إلاّ إذا عرفنا ظروفه الخاصة حتى يتسنى لنا تقمصه في الوقت المناسب.

فنحن يجب أن ندرس الأئمة كخطة عمل وليس كأصحاب قضايا، وأبطال مواقف.

الملاحظة الثالثة:

إننا لا نستطيع أن ندرس أي إنسان بعيداً عن مبادئه، فلا يمكن الحكم على حركات الفرد إلا من خلال «ما يدفعه إلى ذلك» من: مسبقات فكرية، وأهداف نضالية.

فأبسط حركة من أبسط إنسان لا يمكن الحكم عليها حكماً موضوعياً صحيحاً إلا إذا عرفت دوافعه إلى ذلك، وتكوين نفسيته.

لنضرب مثالاً لذلك:

إذا رأيت إنساناً من بعيد يحرك يده يميناً ويساراً، وأنت لا تدري لماذا يفعل ذلك، فقد تحكم عليه بالجنون، بينما إذا اقتربت إليه، وسألته عن ذلك فربما أجابك، بأنه يكش الذباب الذي لم تلاحظه أنت من بعيد.

وإذا كانت حركة بسيطة «مثل كش الذباب» لا يمكن الحكم عليها بصدق وموضوعية إلا إذا عرفنا الدافع إليها، فكيف نستطيع أن نحكم على حركات عظماء التاريخ من دون أن ندرس مبادئهم في الحياة؟

إننا عندما نريد أن ندرس الإمام الحسن أو الإمام الحسين عليهما السلام لابد أن ندرس أهدافهم ومبادئهم قبل ذلك، وإلا لحكمنا على الإمام الحسن عليه السلام – كما حكم عليه بعض أصحابه – بالجبن، لأنه صالح العدو، في الوقت الذي كان بإمكانه أن يحارب حتى الموت.

ولحكمنا على الإمام الحسين عليه السلام – كما حكم عليه بعض معاصريه أيضاً – بالتهور والمغامرة، لأنه خاض حرباً غير متكافئة ضد نصف مليون جندي بينما لم يكن معه سوى اثنين وسبعين جندياً فقط.

الملاحظة الرابعة:

إن تاريخنا ليس أميناً.

خاصة وأنه خرج من يد أكبر مزور للتاريخ وهو معاوية بن أبي سفيان، الذي كان يشتري الضمائر بالعشرات، لكي يزوروا الأحاديث ويلفقوا لأكاذيب.

وبقي هذا التاريخ ملكاً لبني أمية لمدة ٩٩٤ شهراً، وبنو أمية من عُرفوا بالخيانة، والكذب، وبيع وشراء الضمائر.

ونجد من أمثلة واقعية في حياة معاوية أنه كان يستعمل تزوير التاريخ كأسلوب في الحياة، وكان يعتقد أنه لو جمع حواليه – بالشراء الخسيس – مجموعة من كبار الشخصيات البارزة ممن لهم سوابق كثيرة، فإنه يعني امتلاك أكبر مساحة من الزمن له ولبنيه.

ويذكر التاريخ:

أن معاوية استشار مروان بن الحكم في قضايا الحكم قائلاً له:

إن الأمر لم يستتب لنا بعد، فماذا نفعل؟

فأشار إليه بضرورة جلب عمرو بن العاص الذي سمّاه: «شيطان هذه الأمة».

فكتب معاوية إلى عمرو بذلك، وكان آنذاك معتزلاً الناس في الكوفة، عاكفاً على القيادة، وجاء في رسالته بالنص: «إنك ستجد عندنا ما تريد».

فما اقتنع عمرو من ذلك، فبعث إليه معاوية بمائة ألف درهم، فلم يرضخ.

فبعث إليه بمائتين، فلم يرضخ.

حتى بعث إليه بثلاثمائة ألف درهم مع تعهد بتوليه «مصر»، فقبل عمرو ذلك.

ويوم أن دخل عمرو على معاوية في الشام، ضحك معاوية طويلاً، ثم قال له:

يا عمرو.. لقد أغليت الثمن؟

فقال له عمرو:

... وأنا مع ذلك مغبون.. فإني بعت آخرتي بدنياك».

ونحن نعيش وراء جدار سميك من التاريخ عمره أكثر من ألف عام، ونجد فيه آثاراً للكثيرين ممن «باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم» وهذا يعني أن علينا أن نقوم بغربلة ركام ضخم من الأحاديث

المزورة، والخطب المكذوبة، والشخصيات التي لا وجود لها[1]، حتى نتعرف بعد ذلك على حقيقة الأوضاع التي صالح فيها الإمام الحسن عليه السلام، أو ثار فيها الإمام الحسين عليه السلام.

الملاحظة الخامسة:

إن دور أي إمام من الأئمة الاثني عشر إنما يتحدد بظروفه الموضوعية.

وللتوضيح أقول: إن الأئمة كلهم كانوا ينطلقون ضمن هدف واحد، وحركة واحدة، فلم تكن عند الأئمة عدة حركات، ولا عدة أهداف، وإنما كان هنالك هدف واحد، وحركة واحدة.

ولكن الأدوار في هذه الحركة كانت موزعة على الأئمة الاثني عشر عليهم السلام.

فالمخطط الذي كان الأئمة يتبعونه كان واحداً يعرفه السابق منهم، واللاحق.

---

(١) نجد في التاريخ الإسلامي أحداثاً لم تقع، وملوكاً لم يكن لهم وجود، وشخصيات – مثل عبد الله بن سبأ – أسطورية تنسب إليها خوارق لم تكن، وأقوال لم تقل، وقضايا لم تحدث!. وكل ذلك من فضل معاوية بن أبي سفيان.

ولـذلك نـرى أن النبـي ﷺ يخـبر الإمـام عليّـا عليه السلام بـما سيصـير إليـه، ويحدد له موقفه المطلوب.

والإمام علي عليه السلام يخبر الإمام الحسن عليه السلام، بالموقف المطلوب.

والإمام الحسـن عليه السلام ذاتـه يخـبر أخـاه الإمـام الحسـين عليه السلام بـما سيصـير إليه ويكشف له عن أحداث كربلاء.

فعنـدما وقـف الإمـام الحسـين عليه السلام عـلى أخيـه الإمـام الحسـن عليه السلام، وهـو يقـذف بقطعـات مـن كبـده في الطشـت، وجـرت دموعـه بغـزارة على المنظر الرهيب يقول له الإمام الحسن عليه السلام:

يـا أخـاه.. لا تحـزن عـليّ فـإن مصـابك أعظـم مـن مصـيبتي، ورزأك أعظم مـن رزئـي، فإنـك تقتـل – يـا أبـا عبـد الله – بشـط الفـرات بـأرض كـربلاء عطشـاناً لهيفـاً وحيـداً فريـداً مـذبوحاً، يعلـو صـدرك أشـقى الأمـة، وتسـبى حريمـك وتيـتّم أطفالـك، ويسـيرون حريمـك عـلى الأقتـاب بغـير وطـاء ولا فـراش، فيـا ليتنـي كنـت عنـدك أذب عنك، كما يذب عنـك أنصـارك بقتـل الأعـداء، ولكـن هـذا الأمـر يكـون وأنـت وحيـد لا ناصـر لـك منـا. ﴿**لِكُـلِّ أَجَـلٍ كِتـابٌ يَمْحُـوا اللهُ مـا يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ**﴾.

«فعليك يا أخي بالصبر على البلاء حتى تلحق بنا»[1]..

---

(١) كلمة الإمام الحسن عليه السلام: ص١٧٩.

وهـذا يعنـي أن الإمـام الحسـن عليه السلام يحـدد دور الإمـام الحسـين عليه السلام بالجهاد المقـدس، والمـوت «وحيـداً لا نـاصر لـه وعطشـاناً لهيفـاً مـذبوحاً يعلـو صـدره أشـقى الأمـة». بينما كـان عليـه هـو أن يهـادن ويصـالح لمصالح الأمة العليا، أمـا القتـل فيبـدو أنـه قـدر الأئمـة الاثنـي عشـر عليهم السلام جميعاً أما بالسيف أو بالسم.

يقول الإمام الحسن عليه السلام لأحد أصحابه:

«والله لقـد عهـد إلينـا رسـول الله أن هـذا الأمـر (الخلافـة) يملكـه اثنا عشر إماما من ولد علي وفاطمة ما منا إلا مسمومٌ أو مقتول»[1].

ويقـول الإمـام الثـاني عشـر عليه السلام في الـدعاء المعـروف بـدعاء «الندبـة» - وهـو يكشـف عـن وجـود خطـة واحـدة وأدوار متعـددة للأئمة عليهم السلام -:

«لَـكَ الحَمـدُ عَـلى مـا جَـرى بِـهِ قَضـاؤُكَ في أولِيائِـكَ الَّـذينَ استَخلَصـتَهُم لِنَفسِـكَ وَدِينِـكَ إذ اخـتَرتَ لَهُـم جَزِيـلَ مـا عِنـدَكَ مِـنَ النَّعـيمِ المُقـيمِ الَّـذي لا زَوالَ لَـهُ وَلا اضـمِحلالَ، بَعـدَ أن شَرَطـتَ عَلَـيهِمُ الزُّهـدَ في دَرَجـاتِ هـذِهِ الـدُّنيا الدَّنِيَّـةِ وَزُخرُفِهـا وَزِبرجِهـا، فَشَرَطُوا لَكَ ذلِـكَ وَعَلِمـتَ مِـنهُمُ الوَفـاءَ بِـهِ فَقَبِلـتَهُم وَقَـرَّبتَهُم وَقَـدَّمتَ لَهُمُ الذِّكرَ العَلِيَّ وَالثَّناءَ الجَلِي».

---

(١) المجالس السنية: ج٥، ص٢٣٨.

إن الأئمة كانوا يعرفون مسبقاً أنهم مقتولون، وهم – كالإمام علي عليه السلام – لا يبالون أوَقعوا على الموت، أم وقع الموت عليهم، لأنهم «أعاروا الله جماجمهم» ودخلوا معه في تجارة رابحة، باعوا أنفسهم لله، واشتروا رضوانه وجنته.

ونخرج من كل ذلك بنتيجة واحدة هي أن الأئمة كانوا يتبعون مخططاً واحداً في الحياة والسؤال الآن هو:

ما كان هذا المخطط الواحد؟

لكي نعرف هذا المخطط يجب أن نعرف موقع الإمام من الرسالة، وموقع الرسالة منه.

وكما قلنا فإن الإمام هو قدوة، ومجموعة مواقفه وأفكاره وقضاياه تشكل «تراثاً للإنسان» ينفعه في بناء حياة حرة كريمة على أسس سليمة، وهذا التراث العظيم هو الذي يشكّل أهمية الإمام ودوره في الحياة.

فلو جمعنا نحن أرشيف أي إمام، لوجدنا فيه المواقف المثلى لكل من يريد أن يحيا كما يريد الله في مثل ظروفه.

وبما أن الظروف تتغير، فإن مجتمع الإنسان بحاجة في كل ظرف إلى قائد، كان يعيش في مثل ظروفه حتى يستطيع أن «يقلده» في مواقفه.

فلابد من وجود تراث كامل للمواقف: لقائد كان يعيش في ظرف بدء الرسالة..

وقائد كان يعيش في عهد انتكاسة الرسالة..

وقائد حارب..

وقائد لم يحارب..

وقائد عاش تحت ضغط الحكام..

وقائد عاش في الحرية..

وقائد قضى عمره في السجون..

وقائد عاش في المنفى..

وقائد عاش في مجد ولاية العهد..

وقائد عاش في الخرابات..

وقائد عاش تحت الطلب..

كل ذلك مطلوب وجوده للحياة، وضروري وجوده للرسالة.

لأن الرسالة كما ذكرنا في الفصل السابق بحاجة إلى ترجمة تطبيقية، والترجمة التطبيقية يجب أن تتم في عدة ظروف لكي يتسنى للرسالة مطالبة الإنسان بتطبيقها في كافة الظروف.

ذلك لأن المجتمع الذي يعيش ظروف النكسة لا يمكن أن يطلب منه الاقتداء بمن كان يعيش في ظروف الانتصار.. والعكس بالعكس.

فلا يمكن أن يطلب – مثلاً – ممن يعيش في ظروف كظروف الإمام الحسن عليه السلام، العمل وفق خطة الإمام الحسين عليه السلام، كما لا يمكن أن يطلب ممن يعيش في ظروف كظروف الإمام الحسين عليه السلام، العمل وفق خطة الإمام الحسن عليه السلام.. وهكذا لا يمكن أن نطلب ممن يعيش في ظروف الإمام زين العابدين عليه السلام أن يعمل وفق خطة الإمام الصادق عليه السلام أو الإمام المهدي عليه السلام، أو أي إمام آخر كما لا يمكن العكس.

والأئمة الاثنا عشر عليهم السلام الذين عاشوا ظروف الإنسان كلها في تقلّبات الأحداث، تركوا لنا «تراثاً» كاملاً في تطبيق الرسالة في تلك الظروف جميعاً، فهم صبّوا مواقف الرسالة في قوالبها العملية من أجل اسعاد الإنسان في مختلف الظروف وإعطائه «الموقف المطلوب» فيها.

هذا هو مخطط الأئمة العام في الحياة، وواجبنا في دراسة أي واحد منهم هو أن نضعه في ظروفه الخاصة مع الأخذ في الاعتبار أن حركتهم كانت واحدة، بينما الأدوار كانت موزّعة.

أي أن علينا أن ندرس – عندما ندرس أي إمام – ظروف الحركة الإسلامية، وما مرّت به من انتصارات وهزائم، ومن أمجاد ومِحَن، لكي نستطيع فهم مواقف الأئمة فهماً موضوعياً صائباً..

وثيقة الصلح والأجوبة الخاطئة:

.. بعد استعراض هذه الملاحظات الخمس، نبدأ بالإجابة على السؤال الذي يطرح نفسه، كلما جرى الحديث عن الإمام الحسن عليه السلام، أو الإمام الحسين عليه السلام.

لماذا صالح الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية؟

لماذا ثار الإمام الحسين عليه السلام على يزيد؟

وأيهما مارس الأسلوب الأصلح؟

وفي الإجابة على ذلك نجد أمامنا ثلاثة أجوبة:

واحد) إن الإمام الحسن كان يتمتّع – منذ طفولته – بمزاج سليم، يعشق الصلح، ويكره الحرب، على عكس الإمام الحسين الذي كان يتمتع بمزاج عنيف يعشق الحرب، ويكره الصلح.

ويستعرض أصحاب هذا الجواب بعض الأدلة من طفولة الإمامين لكي يثبتوا نظريتهم.

ورغم أن هؤلاء يبذلون جهوداً كثيرة لإثبات رأيهم، فإنهم ينسون الملاحظة الثالثة – التي سبق ذكرها – وهي: أننا لا يمكن أن نجرد الأئمة عن مبادئهم وأهدافهم، وإلا لحكمنا عليهم مسبقاً بالفشل، والسقوط.

إن الأئمة عليهم السلام هم «أصحاب هدف» ولا يمكن أن تتغير مواقفهم حسب المزاج الشخصي.

والإمام الحسن عليه السلام، لم يكن شاذاً عن الأئمة عليهم السلام، فهو القائل: «إنا أهل بيت إذا علمنا الحق تمسّكنا به»[1].

بالإضافة إلى أن مزاج الإمام الحسن عليه السلام بالذات لم يكن مزاجاً صلحوياً، وإنما كان مزاجاً يعشق مبادئه ويريد تحقيق أهدافه، فإذا كانت الحرب هي الوسيلة الممكنة توسل بها، وإذا كان سلوك طريق السِلْم ممكنا سلك طريق الصلح.

---

(١) يقول سفيان بن أبي ليلى – أحد صحابة الإمام الحسن عليه السلام – له: «السلام عليك يا مذل المؤمنين» فيقول له الحسن عليه السلام: «ما جرا هذا منك إلينا»؟ فيقول سفيان: «أنت والله – بأبي أنت وأمي – أذللت رقابنا حين أعطيت هذا الطاغية البيعة، وسلّمت الأمر إلى ابن آكلة الأكباد، ومعك مائة ألف كلهم يموتون دونك، وقد جمع الله لك أمر الناس» فقال له الإمام عليه السلام: «يا سفيان إنا أهل بيت إذا علمنا الحق تمسّكنا به». راجع المجالس السنية: ج٥، ص٢٣٥.

من هنا فإننا نجد أن الإمام الحسن عليه السلام كان قائداً من قواد الجيش الإسلامي الذي حارب الامبراطورية الايرانية.

وكان في عصر الإمام علي عليه السلام قائداً للقوات المسلحة وله خطب ساخنة يدعو المسلمين فيها إلى شن الحرب، يقول في بعضها:

«أمّا بعد..

فإن الله كتب الجهاد على خلقه، وسمّاه كرهاً، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين: اصبروا إن الله مع الصابرين فلستم – أيها الناس – نائلين ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون»[1]..

ويقول في بعضها الآخر:

«أيها الناس..

تيقظوا من رقدة الغفلة، ومن تكاثف الظلمة، فوالذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، وتردّى (تلبس) بالعظمة لئن قام إليّ منكم عصبة بقلوب صافية، ونيّات مخلصة، لا يكون فيها شوب نفاق، ولا نية افتراق، لأجاهدنّ بالسيف قدما، ولأضيقنّ من السيوف جوانبها، ومن الرماح أطرافها، ومن الخيل سنابكها[2]..

---

(١) كلمة الإمام الحسن عليه السلام: ص٧٨.

(٢) المصدر: ص٧٨.

وللإمام تعاليم حربية تعتبر من أروع ما عرف في التاريخ، يقول فيها – مخاطباً أحد قوّاد جيشه –:

إني باعث معك اثني عشر ألفاً من فرسان العرب، وقرّاء المصر.

فسر بهم.

وألن جانبك.

وابسط وجهك.

وافرش لهم جناحك.

وأدنهم من مجلسك.

وسر بهم على شط الفرات، حتى تقطع بهم الفرات ثم تصير بمسكن، ثم امض حتى تستقبل معاوية، فإن أنت لقيته فاحبسه حتى نأتيك، فإني في إثرك وشيكاً.

وليكن خبرك عندي كل يوم.

وإذا لقيت معاوية فلا تقاتلنّه حتى يقاتلك.

وإن فعل (قاتلك) فقاتله[1].

.. ويوم أن جاءه الناس يبايعونه بعد مقتل الإمام علي عليه السلام، طالبهم بأن يبايعوه على أن يسالموا من سالم ويحاربوا من حارب. فقال:

---

(١) المصدر: ص٧٩-٨٠.

الحمد لله على ما قضى من أمر، وخصّ من فضل، وعمّ من أمر، وجلل من عافية، حمداً يتم به علينا نعمه، ونستوجب به رضوانه.

.. إن الدنيا دار بلاء وفتنة، وكل ما فيها إلى زوال، وقد نبأنا الله عنها كيما نعتبر فقدم الينا بالوعيد، كيلا يكون لنا حجة بعد الانذار، فازهدوا فيما يفنى، وارغبوا فيما يبقى، وخافوا الله في السر والعلانية، إن عليا عليه السلام في المحيا، والممات والمبعث عاش بقدر، ومات بأجل، وإني أبايعكم على أن تسالموا من سالمت، وتحاربوا من حاربت[1].

والذي يبايع على أن يحاربوا مع من يحاربه لا يمكن أن يكون صاحب مزاج صلحوي.

وكما قلنا فإن الهدف المقدس الذي كان يسعى إليه الإمام، هو الذي كان يفرض عليه المواقف، ويحمله على الحرب أو السلم، فلا حب الراحة كان دافعاً له إلى الصلح، ولا الحقد كان وراء دعوته إلى الحرب..

وكما قال هو قبيل الدخول مع معاوية في المعركة:

---

(١) المصدر: ص٧.

.. والله إني لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله ومنّه، وأنا أنصح خلق الله لخلقه، وما أصبحت محتملاً على مسلم ضغينة، ولا مريداً له سوءاً ولا غائلة.

ألا وإن ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة.

ألا وإني ناظر لكم خيراً من نظركم لأنفسكم فلا تخالفوا أمري، ولا تردّوا عليّ رأيي غفر الله لي ولكم[1].

إذن فهو كان صاحب هدف: وهو اسعاد الإنسان عن طريق بناء مجتمع سليم له، وكل تصرفاته كانت نابعة من طبيعة هدفه. غضبه كان للهدف، ولينه أيضاً كان للهدف.

وهو يقول في ذلك:

.. ونحن إنما غضبنا لله ولكم، فإنه من علينا بما هو أهله، أن نشكر فيه آلاءه ونعماءه قولاً يصعد إلى الله فيه الرضا، وتنتشر فيه عارفة الصدق، يصدق الله فيه قولنا، ونستوجب فيه المزيد من ربنا، قولاً يزيد ولا يبيد، فإنه لم يجتمع قوم قط على أمر واحد إلا اشتد أمرهم، واستحكمت عقدتهم، فاحتشدوا في قتال عدوكم وجنوده ولا تخاذلوا، فإن الخذلان يقطع نياط القلوب، وإن الإقدام على

(١) أعيان الشيعة: ج١، ص٣٥.

الأسنة نخوة وعصمة، لأنه لم يمتنع قوم قط إلا رفع الله عنهم العلة، وكفاهم حوائج الذلة، وهداهم إلى معالم الملة..

والصلح تأخذ منه ما رضيت به والحرب يكفيك من أنفاسها جرع[1]

فالقضية لم تكن قضية مزاج شخصي، لا عند الإمام الحسن عليه السلام – في الصلح – ولا عند الإمام الحسين عليه السلام – في الثورة –.

بدليل أن الإمام الحسين عليه السلام الذي يصفه أصحاب هذا الرأي بالمزاج العنيف كان تحت قيادة الإمام الحسن عليه السلام عندما صالح معاوية، ولم يبد رأياً، ولا خالف، وهو الذي قال في يوم عاشوراء لأخته زينب عليها السلام:

«إن أخي كان خيراً مني».

ومعلوم أن مقياس «الخير» عند الإمام الحسين عليه السلام، ليس مقياساً عاطفياً، بل هو مقياس موقفي، كأنه يقول أن مواقف الإمام الحسن عليه السلام في ظروفه كانت أنجح من مواقفي أنا..

وتلك شهادة تكفي لنا في رد من يرجع صلح الإمام الحسن عليه السلام إلى المزاج الشخصي.

اثنين) إن عصر الإمام الحسن عليه السلام يختلف عن عصر الإمام الحسين عليه السلام.

---

(١) ناسخ التواريخ.

فعصر الإمام الحسن عليه السلام كان «عصر معاوية» ومعاوية لم يكن يشكل خطراً جدياً على الرسالة لأنه – على الأقل – كان يحافظ على المظاهر الإسلامية، بينما كان عصر الإمام الحسين عليه السلام «عصر يزيد» ويزيد بدأ في ضرب الإسلام بكل صلافة.

مثلاً – كان معاوية يصلي بالناس الجماعة، ويصوم رمضان، ويحج إلى بيت الله..

بينما يزيد لم يكن يصلي إطلاقاً، ولا صام في عمره قط، وبدل أن يحج إلى بيت الله.. هدمه[1].

من هنا فقد تحتّم على الحسين عليه السلام الثورة، لأنها كانت ضرورية لإنقاذ الإسلام، بينما لم يتحتم على الحسن عليه السلام ذلك، لأن الخطر لم يكن جدياً إذ ذاك.

.. ونعتقد أن هذا الجواب، ليس أقل سخافة من الجواب الأول.

---

(١) وإن كان الهدم قد جاء متأخراً عن قتل الإمام عليه السلام ولكنه على أي حال كان متوقعاً منه..

ذلك لأنه:

أولاً: إن الخطر الذي كان يشكله معاوية، بصفته الخليفة غير الشرعي، والقائد المتمرد، كان أكثر من أي خطر آخر لأن معاوية كان هو الرأس المدبر للمؤامرة ولم يكن يزيد إلا خطة من خططه، غير أن معاوية كان «محتالا» من الدرجة الأولى، فهو كان يغطي أعماله بغطاءات مختلفة، ويمارس تحتها كل إجرام.

ولذلك فقد جمع حوله فيلقاً من وضاع الأحاديث، وصنع جهازاً ضخماً للدعاية الكاذبة كما نجح في رسم «هالة قدس» مزيفة حول شخصه.

إن خطر معاوية كان يأتي من محاولته طمس معالم الدين باسم الدين. أي أن خطره كان عمقياً. بينما خطر يزيد كان يأتي من مقاومته الصريحة للروح الدينية، وضربه الدين بظاهر الفسق والفجور، وإنكار النبوة والأنبياء، أي أن خطره كان سطحياً.

كان هدف معاوية «دفن اسم الرسول» - كما قلنا - بينما لم يكن هدف يزيد غير كاسات الخمر يتناولها من يدي الزانيات، في مجالس الحكم والإدارة، وعلى رؤوس الأشهاد.

ثانياً: إن الإسلام لا ينحصر في مظاهر العبادة التي كان يمارسها معاوية، ولا يمارسها يزيد، حتى تكون «صلاة الجماعة» و«صيام رمضان» دليلاً على عدم وجود خطر جدي.

فالإسلام دين ودولة، عقيدة ونظام، سياسة واقتصاد، حركة ونشاط، والمؤامرة على أي جزء منه، هي مؤامرة على كيانه، لأن الإسلام كل لا يتجزأ.

ولذلك.. فإن أي انحراف عنه يكفي مبرراً لإشعال حرب مقدسة ضد صاحبه.

يقول القرآن الكريم:

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ﴾.

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ﴾.

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

والقرآن لا يحدد الصلاة أو الصيام مقياساً، حتى تكون مخالفتها حكماً بما لم ينزل الله، بل ترك القضية عامة ومطلقة لكي تشمل أية مخالفة لحكمه، في أي شيء كان..

إذن: فلا يجوز لنا أن نعتبر فارق الخطر بين معاوية ويزيد مبرراً لثورة الإمام الحسين عليه السلام، وصلح الإمام الحسن عليه السلام، لأن الخطر كان في عهد الإمام الحسن عليه السلام أكثر جدية منه في عهد الإمام الحسين عليه السلام.

ثلاثة) إن الإمام الحسن عليه السلام أراد الثورة المسلحة، وقد خاضها بالفعل، ولكن قواده خانوه.

إن أصحاب معاوية كانوا متمسكين به إلى درجة العبادة بينما كان أصحاب الإمام الحسن عليه السلام مفككين، ممزقين إلى أبعد الحدود.

وقد وصف الإمام عليه السلام أصحابه في كلمات معبرة فقال:

كرهت الدنيا.. ورأيت أهل الكوفة قوماً لا يثق بهم أحد إلا غلب، ليس أحد منهم يوافق الآخر في رأي ولا هواء، مختلفين، ولا نية لهم في خير ولا شر، لقد لقي أبي منهم أموراً عظاماً، فليت شعري لمن يصلحون بعدي[1]؟

فالإمام جهّز الجيش وأرسله، ولكن أكثر قواده باعوا ضمائرهم للشيطان...

خانه ابن عمه «عبيد الله بن عباس» وكان قائداً كبيراً على الجيش لقاء كيس من المال سرّبه إليه معاوية، كان فيه اثنا عشر ألف درهم..

وخانه الجنود وخانه غيرهم كثيرون.. حتى أن بعض المقربين إليه كتب إلى معاوية رسائل سرية قال فيها:

يا معاوية.. إن شئت سلّمناك الحسن حيا وإن شئت سلّمناه ميتاً!

ومع هؤلاء الخونة كيف يحارب الإمام عليه السلام؟

---

(١) الكامل: ج٣، ص٢٠٤.

وليس بعد هذا أمام الحسن عليه السلام، إلا اختيار أحد أمرين لا ثالث لهما:

١ – فإما أن يصالح.

٢ – أو يضحي بنفسه وجميع أهل بيته وأنصاره.

وبالموازنة الصحيحة، لا مجال إلا لاختيار الشق الأول هنا.

حيث أن اختيار التضحية معناه التفريط بنفسه وأهل بيته وأصحابه من دون أن يترتب أي أثر على ذلك إلا انهاء هذه الذرية الطيبة للنبي الأعظم صلى الله عليه وآله، والثلة الصالحة من أعوانهم وأنصارهم[1].

وبعبارة أخرى «كان الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام أمام أمرين لا ثالث لهما: إما المقاومة، أو المسالمة. وقد رأيا أن المقاومة في دور الإمام الحسن عليه السلام تؤدي لا محالة إلى فناء هذا الصف المدافع عن الدين وأهله، والهادي إلى الله عز وجل، والى صراطه المستقيم، إذ لو غامر الحسن عليه السلام يومئذ بنفسه وبالهاشميين وأوليائهم، فواجه بهم القوة التي لا قبل لهم بها مصمماً على التضحية تصميم أخيه يوم «الطف» لانكشفت المعركة عن قتلهم جميعاً، ولانتصرت الأموية بذلك نصراً تعجز عنه امكانياتها ولا تخسر عن مثله أحلامها وأمنياتها، إذ يخلو بعدهم لها الميدان، وتمعن في تيهها كل امعان،

(١) صلح الإمام الحسن عليه السلام – أسبابه ونتائجه: ص١٣٠.

وبهذا يكون الحسن عليه السلام – وحاشاه – قد وقع فيما فر منه على أقبح الوجوه[1]..

.. وفي اعتقادي أن هذا الجواب كسابقيه غير واقعي وبعيد عن فهم ظروف الإمام الحسن عليه السلام، ورسالته التاريخية:

أولاً: لأن الأئمة عليهم السلام ما كانوا طلاب حياة حتى نجعل من «بقائهم» أو «بقاء بعض أصحابهم» في الدنيا مبرراً لتنازلهم عن الحق، أو تقاعسهم عن تحمله.

إن الأئمة عليهم السلام هم «حملة رسالة» لا يهمهم ان جاء تحملهم لها في خوض حرب، أو في توقيع وثيقة صلح.

أما الموت في سبيل الله فكان أمنيتهم، أ وما قال أحدهم:

«القتل لنا عادة، وكرامتنا من الله الشهادة». فتضحية الإمام الحسن عليه السلام «بنفسه وجميع أهل بيته وأنصاره» لا تعني «التفريط بنفسه وأهل بيته وأنصاره» بدليل أن الإمام الحسين عليه السلام ضحّى «بنفسه، وجميع أهل بيته وأنصاره» من دون أن يكون عمله تفريطاً بهم. بل كان تقديساً للرسالة، وتعميقاً لجذورها، وكسباً لأنصارها.

فالفناء، من أجل الله.. بقاء.

والبقاء خوفاً من الموت.. فناء.

---

(١) صلح الحسن عليه السلام، للشيخ راضي آل ياسين.

وأعتقد أنه لو كان الإمام الحسن عليه السلام يقتل هو مع كل أهل بيته، وأنصاره، لكان يحدث ضجة عظيمة، ربما كانت آثارها أكثر – جداً جداً – من آثار تضحية الإمام الحسين عليه السلام، لأن الحسن عليه السلام كان إذ ذاك خليفة شرعياً، يقتله خليفة غير شرعي، بينما الإمام الحسين عليه السلام كان – حينما قتل – مجرد حفيد لرسول الله صلى الله عليه وآله، لا بويع بخلافة، ولا نصّب أميراً عاماً للمسلمين.

إذن فكيف لم يكن يترتب على قتله أي شيء؟

وقضية «إنهاء الذرية الطيبة للنبي الأعظم صلى الله عليه وآله والثلة الصالحة من أعوانهم» واردة في ثورة الإمام الحسين عليه السلام أيضاً.

فلماذا أقدم عليها الإمام في كربلاء؟

ثانياً: إن خيانة جنود الإمام، وبعض قواده له صحيحة، ولكن صحيح أيضاً أنه بقيت معه آلاف مؤلفة كانت مستعدة، حتى آخر لحظة، للقتال وخوض الحرب.

إن الإمام الحسن عليه السلام كان وريث تاج وعرش، وكانت تحت حكومته امبراطورية تمتد من ليبيا إلى أواسط الاتحاد السوفياتي عدا عن سوريا، وفلسطين والأردن – الفعلية – وهي التي كانت معروفة ببلاد الشام سابقاً.

وكانت تحت قيادته يوم وقع وثيقة الصلح مع معاوية مائة ألف جندي مسلّح[١].

أما الذين خانوه، فلم يكونوا يتعدون أصابع اليد..

وما يقال من أن بعض جنوده – أو قواد جيشه – كتبوا إلى معاوية يقولون له: «إن شئت سلمناك الحسن حياً أو ميتاً» يقال عن جنود معاوية، فقد كتب بعضهم إلى الإمام الحسن عليه السلام يقول: إن شئت سلمناك معاوية حياً وإن شئت سلمناه ميتاً[٢].

فكيف إذن لم يكن للإمام ناصر؟

بالإضافة إلى أن لنا أن نتساءل.. وكم كان أنصار أخيه الإمام الحسين عليه السلام يوم قاتل نصف مليون جندي في صحراء كربلاء؟ ألم يكن ٧٢ فقط، بينما خانه كل أهل الكوفة، وكل أهل المدينة، وكل أهل مكة، وكل أنصاره الذين خرجوا معه باتجاه الكوفة، ما عدا الاثنين والسبعين.

فكيف خاض الحسين عليه السلام الحرب حتى الموت؟

وصالح الإمام الحسن عليه السلام؟

---

(١) راجع المجالس السنية: ج٥، ص٢٣٥.

(٢) صلح الحسن عليه السلام.

قد يقول البعض: إن الاثنين والسبعين رجلاً الذين كانوا مع الإمام الحسين عليه السلام، لو كانوا مع الإمام الحسن عليه السلام لخاض الحرب – مثل الحسين – حتى الموت.

ولكن.. حتى هؤلاء كانوا مع الإمام الحسن عليه السلام فأخوه الإمام الحسين عليه السلام كان موجوداً، والعباس عليه السلام كان موجوداً، وحبيب بن مظاهر كان موجوداً، وحتى زينب كانت موجودة، ومع ذلك صالح الإمام الحسن عليه السلام، لماذا؟

تهيئة الأجواء للثورة كانت هي السبب:

وبعد أن تبخرت كافة الأجوبة المعروضة على السؤال الحائر:

لماذا صالح الإمام الحسن عليه السلام؟

ولماذا ثار الإمام الحسين عليه السلام؟

لابد أن نبحث عن الجواب الحقيقي ونتساءل عن ذلك من الإمام عليه السلام نفسه، لأن الإمام أعرف بمواقفه، وألصق بأهدافه.

وقبل أن نستعرض كلمات الإمام عليه السلام لابد أن نتعرف على الظروف التي واجهها قبل توقيع معاهدة الصلح حتى نفهم أجوبة الإمام عليه السلام جيداً..

إن الظروف التي مرت على الأمة الإسلامية أعطت السلطات التنفيذية – في نظر الأمة – حق اعتبار نفسها سلطات تشريعية أيضاً، فكان الخليفة يعتبر نفسه مشرعاً إلى جانب كونه منفذا للشريعة في وقت واحد..

وبما أن الأمة اعتادت على حياة الرسول الأعظم ﷺ الذي كان يمارس التشريع[1] والتنفيذ معاً، واعتادت على حياة الذين تعاقبوا على الحكم – الذي كانوا هم أيضاً يمارسون بشكل أو بآخر كلا الأمرين، فقد أصبح من السهل على القيادات، عندما انحرفت عن خطها الإسلامي المحدد، أن تقوم بنسف كل الأسس التي قام عليها الإسلام، وابداع أسس جديدة تختلف جذرياً عن الأسس الإسلامية، على اعتبار أن للحاكم أن يغير ويبدل كما أن له أن ينفذ..

.. وهذا ما كاد أن يقع فعلاً.. فلقد تخدر جسم الأمة بشكل بات معه يخشى من قيام السلطات بالتلاعب بنصوص الشريعة، وتحويلها إلى مجموعة معتقدات ومبادئ تحمل ماركة الإسلام، وهي غريبة عن الإسلام تماما[2].

---

(١) جرينا في ذلك حسب التعبير الحديث، وإلا فإن النبي ﷺ لم يكن مشرعاً، ولا مارس التشريع لحظة من حياته، وكل ما أعلن عنه كان وحياً يوحى.

(٢) الف باء الإسلام – للمؤلف – ص١٩٤.

ولكي نفهم هذا المعنى لابد أن نقول:

إن الإسلام جاء فحرر الناس من عبودية العباد وحولهم من عبادة «الإنسان» إلى عبادة «رب الإنسان». وتحمل رسول الله ﷺ الكثير من المتاعب في سبيل ذلك حتى استطاع أن يعطي الناس نفسية رسالية تعي رسالتها، وتفهم مسؤوليتها، وتكفر بكل المقاييس، سوى المقاييس الرسالية..

ولكن بعد مضي فترة على عملية التحرير هذه تعود الناس على «المظاهر» وخدعتهم واجهة الإيمان، وأشكال الطقوس، أي أنهم انتقلوا – بعد ربع قرن من عمر الرسالة – من الجاهلية القديمة التي كانت «جاهلية الروح والشكل» إلى جاهلية حديثة، تحمل «شكل الإسلام» بينما «الروح جاهلية» بكل ما تعني الجاهلية من قيم وأفكار، وسلوك..

وبما أن هذه الجاهلية كانت تتمتع بصبغة مقدسة، فإنه أصبح محضوراً على الناس محاسبتها أو مجرد التفكير في أن «واجهاتها» قد تخطئ، بل قد تكون خاطئة من الأساس.

هذا من ناحية..

ومن ناحية أخرى، فإن بعض الجماعات التي ساهمت بشيء قليل في انتصار الرسالة تحولت بعد التربع على العرش إلى طبقة جديدة، تمتلك بقيم جاهلية، سلطان الأمة الجديدة.

فإذا كان أبو سفيان – مثلاً – يعتقد قبل انتصار الرسالة، أنه أحق بالعرش نظراً لتوفر القيم الجاهلية فيه، فإن معاوية أيضاً كان يعتقد نفس الاعتقاد، وبالاستناد إلى نفس القيم، إنما الأصباغ هنا كانت من لون آخر[1].

ونتيجة لذلك كله، فإن خطراً كبيراً بات يهدد الإسلام، حيث أصبح وقوعه كدين في مصير كمصير المسيحية، وسقوطه كدولة في مصير كمصير الدول الفكرية وشيكاً.

وكان الوضع بحاجة إلى «خضة» عنيفة تعيد الأمة إلى رشدها، وتعيد الإسلام إلى نقائه.

لم يكن مهماً شكل هذه «الخضة» بمقدار ما كان مهماً وقوعها على أي حال.

---

(١) يكتب معاوية رسالة إلى الإمام الحسن عليه السلام يقول فيها: «وقد علمت أني أطول منك ولاية، وأقدم منك بهذه الأمة تجربة، وأكبر منك سناً فادخل في طاعتي (ابن أبي الحديد ج٤ ص١٣) وهكذا يرى في «كبر السن» و«طول الولاية» و«معرفة الأمة» مقاييس للحكم. أما التقوى، أما العلم، أما الرسالة فلا تشكل مقياساً في القضية!

والإمام الحسن عليه السلام حاول أن يقوم بهذه «الخضة»، ولذلك كله هيأ نفسه، وأعد جنده، وعبّأ شعبه، وخطب عشرات الخطب، كشف فيها عن الأسس الإسلامية الصحيحة، وعن روح الدين النقية، وبدأ العملية..

العملية ابتدأت بمحاولة كنس بني أمية باعتبارهم عقبة في وجه المسيرة الإسلامية، ولكن «معاوية» كان مشكلة..

معاوية كان «محتالاً» إلى أبعد الحدود – بل أن هذه الكلمة تبدو عاجزة عن تصويره – ولم يكن يتورع عن استعمال أساليب نذلة من أي نوع، لأجل تحقيق أغراضه في السلطة والنفوذ.

فالرجل كان شيطاناً في المناورة، وفهم الناس وما يؤثر فيهم وما يغيرهم ويبدلهم.

ولهذا..

فإنني أعتقد أن معاوية، كان مصمماً على أن لا يمس الإمام الحسن عليه السلام بأي سوء، فيما لو انتصر عليه.

إنه كان يعرف أن قتل الإمام الحسن عليه السلام حفيد رسول الله – الذي طالما رآه المسلمون يجلس على كتف النبي صلى الله عليه وآله في فترة الطفولة، وصاحب النفوذ الواسع في القلوب والمشاعر – لم يكن مما يسكت عليه الناس.

إن كل دعايات معاوية، خلال تمرّده على الإمام علي عليه السلام كانت منصبة على أن الإمام علي عليه السلام شريك في مقتل عثمان، ولم يتحرك جهلة الشام ضد الإمام عليه السلام إلا تعصباً أعمى لعثمان. ولكن ما دخل الإمام الحسن عليه السلام في ذلك؟

لو قتل الإمام الحسن عليه السلام كيف كان يبرر معاوية عمله هذا؟ ومن كان يقبل منه؟

.. ولأن معاوية كان يعرف ذلك فإنه كان مصمماً على الحفاظ على حياة الإمام الحسن عليه السلام.

وكان ينوي – ربما – أن يهزم الإمام عليه السلام، ثم يخصص له منطقة واسعة كدار للسكن، وبستان للزرع، مع مخصصات مالية كافية ثم يطلبه أمام أعين الناس ليقول له:

يا حفيد رسول الله

«ألم تسمع قول الله عز وجل: ﴿**إِنَّ هـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾، وقوله: ﴿**وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾ وقول رسول الله – جدك –: «كل فرقة ضلالة، وكل ضلالة في النار»؟

فلم إذن أحدثت الفرقة؟

إننا قاتلنا أباك ليسلمنا قتلة عثمان، أما أنت فلم نشأ إزعاجك، ولكن لماذا جهّزت الجيوش، وهيّأت العساكر لمقاتلة المسلمين؟

ألم يكن من الأفضل لك أن لا تحارب لأن في الحرب إراقة الدماء، وشق الصفوف..

والآن.. حيث كتب الله لنا النصر، وأسكن النائرة اذهب فأنت.. الطليق».

ثم كان يقول للإمام عليه السلام، ما كتبه إليه:

- أيها الحسن..

والله لو علمت: أنك أضبط مني للرعية وأحوط على هذه الأمة، وأحسن سياسة، وأقوى على جمع الأموال، وأكيد للعدو لسلّمت لك الأمر بعد أبيك، فإن أباك سعى على عثمان حتى قتل عثمان مظلوماً، فطالب الله بدمه، ومن يطلبه الله فلن يفوته[1].

ثم كان يعلن:

أيها الناس.. اشهدوا أني عفوت عن الحسن عفا الله عنه.

وبهذا الأسلوب - الذي نجد مثيله كثيراً لدى معاوية - كان يمتص الحقد الذي كان يغلي في صدور المؤمنين، كما كان يكتب مناعة جديدة ضد أية دعوة للمقاومة ضده.

---

(١) راجع: شرح ابن أبي الحديد: ج٤، ص١٣.

وبعد ذلك.. كان يقوم بعمليات دعائية ضخمة لتبديل حكمه من سلطنة زمنية إلى سلطان إلهي، مستعيناً في ذلك بوضاع الأحاديث وحملة الضمائر الموبوءة، وكان يتحول بعد فترة من رجل امتلك العرش بالقوة، إلى نصف «إله» يجب على الناس اتباع أوامره ونواهيه كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً!

خاصة وأن الناس – كما ذكرنا – كانوا قد اعتادوا على اعتبار صاحب السلطات التنفيذية، صاحب سلطات تشريعية أيضاً.

وبما أن الإمام الحسن عليه السلام، كان يعاني من الهزيمة، والإقامة الجبرية فلم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً في مقابل الرجل، إن لم يكن يدس بعض جنود الله في العسل ليقضي على الإمام عليه السلام، ثم يبكي عليه ويترحم!

ونجد في كلمات الإمام عليه السلام التي أجاب بها على من اعترض عليه بعد الصلح، أكبر الأدلة على أن خوف الإمام عليه السلام من مواصلة الحرب، كان كامناً في معرفته أن الحرب لن تنتهي بمقتله..

وإليك بعضها:

أ – قال له رجل: بايعت معاوية ومعك أربعون الفاً، ولم تأخذ لنفسك وثيقة، وعهداً ظاهراً؟

فقال له:

«إني لو أردت – بما فعلت – الدنيا، لم يكن معاوية بأصبر مني عند اللقاء، ولا أثبت عند الحرب مني، ولكني أردت صلاحكم»[١].

فهو إذن «صالح» ليس من أجل أن يدفع الموت عن نفسه، وأهله وأنصاره وإنما من أجل صلاح الأمة!

ب – وقال له رجل آخر: يا بن رسول الله، لوددت أن أموت قبل ما رأيت، أخرجتنا من العدل إلى الجور، فتركنا الحق الذي كنا عليه، ودخلنا في الباطل الذي كنا نهرب منه، وأعطينا الدنية من أنفسنا، وقبلنا الخسيس الذي لم يلق بنا».

فقال له الإمام عليه السلام:

يا فلان.. إني رأيت هوى معظم الناس في الصلح، وكرهوا الحرب، فلم أحب أن أحملهم على ما يكرهون، فرأيت دفع هذه الحروب إلى يوم ما، فإن الله كل يوم هو في شأن[٢].

وهذا يعني أن الإمام رأى أن الناس مقبلون على الصلح لا محالة، وأنه لن يستطيع مواصلة الحرب حتى الموت، فاستعجل الصلح لكي يكسب به شروطه، ويتهرب من المصير الذي تحدثنا عنه..

---

(١) تاريخ ابن عساكر: ج٢، ص٢٢٥.

(٢) كلمة الإمام الحسن عليه السلام: ص١٠٠.

ج – وقال له ثالث: لم هادنت معاوية، وصالحته وقد علمت: أن الحق لك دونه، وأن معاوية ضال باغ.

فأجابه الإمام عليه السلام:

علة مصالحتي لمعاوية [هي] علة مصالحة رسول الله لبني ضمرة، وبني أشجع، ولأهل مكة حين انصرف من الحديبية، أولئك كفار بالتنزيل، ومعاوية وأصحابه كفار بالتأويل..

وأضاف:

إذا كنت إماماً من قبل الله تعالى ذكره لم يجب أن يسفّه رأيي فيما أتيته من مهادنة أو محاربة، وإن كان وجه الحكمة فيما أتيته ملتبساً. ألا ترى الخضر لما خرق السفينة، وقتل الغلام وأقام الجدار سخط موسى من فعله لاشتباه وجه الحكمة عليه، حتى أخبره فرضي، هكذا أنا سخطتم عليّ بجهلكم بوجه الحكمة فيه[1].

ويبدو من هذا الكلام، أن القضية كانت أعمق من قضية الحفاظ على حياة الأهل والأنصار، لأن ذلك كان أوضح ما ترتب على الصلح، فلم يكن خافياً على أحد، ولا مستوراً عن أحد، بل كان أول ما يبادر إلى الذهن هو أن يكون الإمام قد هادن من أجل المحافظة على الذات، والأهل والأنصار.

---

(١) كلمة الإمام الحسن عليه السلام: ص١٠٣.

د – وقال له رجل: لماذا صالحت؟ فأجابه الإمام عليه السلام:

إني خشيت أن يجتث المسلمون عن وجه الأرض، فأردت أن يكون للدين ناع[1].

وفي هذا الجواب يكشف الإمام عليه السلام عن خطورة المؤامرة التي كانت تنفذ من قبل معاوية، إذا ما استمرت الحرب بينه وبين الإمام عليه السلام وهذا يعني أن «الأمة» كانت تتعرض لعملية اقتلاع كاملة بعد هزيمة الإمام، وعفو معاوية عنه، ثم وضعه تحت الإقامة الجبرية.

أما وقد وقّع الإمام على هذه الوثيقة، فإنه فوّت الفرصة على معاوية، حيث سد الدرب أمام كل التبريرات التي قد كان يلجأ إليها بعد الهزيمة.

هـ – ونجد تصريحاً للإمام الحسن عليه السلام بشأن الصلح، يعترف فيه الإمام عليه السلام صراحة، أن الحرب مع معاوية، لم تكن تنتهي بقتله، وإنما بأسره ثم العفو عنه، على الطريقة التي شرحناها.

يقول الإمام عليه السلام:

والله لو قاتلت معاوية، لأخذوا بعنقي حتى يدفعوني إليه سلماً.

---

(١) البحار.

فـوالله لأن أسـالمه وأنـا عزيـز، خـير مـن أن يقتلنـي وأنـا أسـيره، أو يمـن عـليّ فيكـون سـبة عـلى بنـي هاشـم إلى آخـر الـدهر، ومعاويـة لا يزال يمن بها وعقبه، على الحي منا والميت[1].

أي أن الأمـر لم يكـن دائـراً بـين الشـهادة أو النصـر، وإنـما كـان دائـراً بـين المـوت في الأسر، وربـما عـن طريـق دس السـم في العسـل، وبين «المنّ» والاستسلام لخطط العدو..

ولكـن الإمـام عليه السلام فـوّت عليـه ذلـك، فـاقترح «الصـلح»[2] فقبلـه معاويـة بـلا تـردد عليـه رغـم أنـه كـان يعـرف أن الإمـام عليه السلام اقـترح الصـلح مـن موقـع قـوة، وأنـه لـو واصـل الحـرب ربـما اسـتطاع انتـزاع النصر، وفـرض الصـلح عـلى الإمـام عليه السلام، وهـو في موقـع ضـعف، ولكـن لم يكن أمامـه إلا هـذا الخيـار، لأن اقـتراح الإمـام عليه السلام قطـع عليـه الأعـذار التي كان يتوسل بها لمواصلة الحرب.

وهكـذا اسـتطاع الإمـام عليه السلام أن ينتـزع منـه اعترافـات مهمـة نجـدها في وثيقـة الصـلح، كـما أمـلى عليـه شروطـه الخاصـة، وكلهـا في صالح الرسالة، وصالح الأمة.

---

(١) كلمة الإمام الحسن عليه السلام: ص٨٢.

(٢) يذكر التاريخ أن الصلح كان من اقتراح الإمام الحسن عليه السلام، وليس من اقتراح معاوية!

وإليكم فيما يلي وثيقة الصلح:

بسم الله الرحمن الرحيم

هـذا مـا صـالح عليـه الحسـن بـن عـلي بـن أبي طالـب معاويـة بـن أبي سفيان.

صالحه:

واحـد) عـلى أن يعمـل فـيهم بكتـاب الله وبسـنة رسـوله وبسـيرة الخلفاء الصالحين.

اثنين) وليس لمعاوية بـن أبي سـفيان أن يعهـد لأحـد – مـن بعـده – عهداً، بل يكون الأمر (أمر الخلافة) للحسن من بعده، فإن حدث به حدث (توفي) فلأخيه الحسين.

ثلاثـة) وأن يـترك سـب أمـير المـؤمنين، والقنـوت عليـه بالصـلاة، وأن لا يذكر علياً إلا بخير.

أربعـة) واسـتثناء مـا في بيـت مـال الكوفـة – وهـو خمسـة آلاف ألف –.

خمسـة) وعـلى معاويـة أن يحمـل إلى الحسـين كـل عـام ألفـي ألـف درهم.

سـتة) وأن يفضـل بنـي هاشـم في العطـاء والصـلات، عـلى بنـي عبد شمس.

سبعة) وأن يفرق (يقسم) في أولاد من قتل مع أمير المؤمنين – يوم الجمل – وأولاد من قتل معه – بصفين – ألف ألف درهم، وأن يجعل ذلك من خراج «دار أبجر».

ثمانية) وعلى أنّ الناس آمنون، حيث كانوا من أرض الله، في شامهم، وعراقهم، وحجازهم، ويَمَنِهِم، وأن يؤمن الأسود والأحمر، وأن يحتمل معاوية ما يكون من هفواتهم.

تسعة) وأن لا يتبع أحداً بما مضى، وأن لا يأخذ أهل العراق بإحنة.

عشرة) وعلى أمان أصحاب علي، حيث كانوا وأن لا ينال أحداً من شيعة علي بمكروه، وأن أصحاب علي وشيعته آمنون على أنفسهم، وأموالهم ونسائهم وأولادهم، وأن لا يتعقب عليهم شيئاً، وأن لا يتعرض لأحد منهم بسوء، ويوصل إلى كل ذي حق حقه.

أحد عشر) وعلى معاوية بن أبي سفيان بذلك عهد الله، وميثاقه، وما أخذ الله على أحد من خلقه بالوفاء بما أعطى من نفسه.

اثنا عشر) وعلى أن لا يبغي للحسن بن علي ولا لأخيه الحسين، ولا لأحد من أهل بيت رسول الله غائلة سراً ولا جهراً، ولا يخيف أحداً منهم في أفق من الآفاق.

«شهد عليه بذلك الله وكفى بالله شهيداً».

والسلام[1]..

---

(١) راجع البحار: ج١٠، ص١١٥؛ وأعيان الشيعة: ج٤، ص٤٣.

وكما يبدو جلياً في هذه الوثيقة – التي تقول الروايات التاريخية أن معاوية كتبها بخط يده ووقّع عليها – فإن الإمام الحسن عليه السلام انتزع اعترافاً بحق الإمامين – الحسن والحسين عليهما السلام – في قيادة الأمة، على أساس أن خلافة معاوية هي خلافة «القوة» و«الانتصار» وليست خلافة «الحق» و«الواقع».

كما انتزع منه التزاماً بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله، وهو التزام حيوي بالنسبة للأمة في تلك الحقبة من الزمن، لأن معاوية كان يسعى «للتحرر» من «العمل بكتاب الله وسنة رسوله» ولا شك أنه كان يتحرر من ذلك فعلا لو أنه انتصر بالحرب لأنه حينئذ ما كان يجد داعياً إلى قبول أي شرط من أي أحد.

وهكذا «فوّت الإمام عليه السلام بتوقيعه معاهدة الصلح، مع معاوية الفرصة عليه لصياغة قيادة اسلامية مزيفة وفرض نفسه كخليفة شرعي، أو كنبي، أو أكبر من ذلك الأمر الذي كان يترك آثاراً خطيرة جداً على الرسالة كدين ومنهج حكم وإدارة»[1].

(١) ألف باء الإسلام: ص١٨٨.

صلح الإمام الحسن عليه السلام ثورة، وثورة الإمام الحسين عليه السلام صوتها:

نخرج مما سبق بالنتائج التالية:

١ – أن الرسالة تعرّضت في بداية خلافة الإمام الحسن عليه السلام لخطر جدي نظراً إلى تعوّد الناس على اعتبار الخليفة كالرسول صاحب الحق في التشريع، والحكم.

٢ – أن «معاوية» كان بحكم تسلسل الأحداث التاريخي «شيئاً مقدسا»، وكان من الممكن أن يبقى كذلك لفترة طويلة، وربما إلى الأبد، لو أنه انتصر على «المعارضة»، واستثمر كل قدراته في تكثيف هالة القدسية على نفسه.

فهو إذن كان «بحاجة» إلى تعرية، أكثر مما كان بحاجة إلى مقاومة.

٣ – إن الإمام الحسن عليه السلام استطاع بتنازله البطولي عن حقه في ممارسة الحكم، أن يقوم بالتعرية المطلوبة وذلك حينما ترك العرش لمعاوية، بعد أن أخذ منه العهود والمواثيق على العمل بالإسلام، فوضع «مقاييس» للناس لكي يقيسوا بها تصرفات الحكام والرعية..

٤ – إن الإمام الحسن عليه السلام حافظ على وجود المعارضة في الوقت الذي كان من الممكن تعرّضها للاقتلاع لو أنه واصل الحرب..

وبما أن تعرية أي نظام، هي الخطوة الأولى في طريق القضاء عليها، وبما أن معاوية - «الشيء المقدس» - كان «بحاجة» إلى «تعرية ذكية» تفوّت عليه فرصة التراجع عنها..

وبما أن الصلح انتهى إلى خسران الإمام الحسن عليه السلام للعرش، وربح الهدف، على عكس معاوية الذي انتهى به الصلح إلى كسب العرش، وخسارة الهدف...

لذلك كلّه، فإننا نعتقد أن عمل الإمام الحسن عليه السلام وخطته الدقيقة، كانت هي التمهيد الطبيعي لثورة الإمام الحسين عليه السلام.

إذ كان يستحيل على الإمام الحسين عليه السلام أن ينجح في ثورته، لو أن الأرضية لم تكن مهيأة لذلك...

كان يستحيل أن تُحدِث ثورة الإمام الحسين عليه السلام تلك «الخضة» الجذرية التي مسّت الأعماق، في جسم الأمة، وأحدثت ردة فعل عنيفة أدّت إلى تقييم جديد لكل الأسس التي قامت عليها الأنظمة التي تعاقبت على المسرح بعد فوت الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، لولا أنّ «القيم الإسلامية» تجذّرت في النفوس في عهد الإمام الحسن عليه السلام، وأكّدها «معاوية» واعترف بها في وثيقة الصلح.

إن بعض السذّج يتصورون أن معاهدة الصلح لم تأت ثمارها كما توقع الإمام الحسن عليه السلام، لأن معاوية خالف كل بنودها بلا استثناء...

وفي تصوري أن الإمام عليه السلام كان يعرف جيداً ما تنطوي عليه نفسية الرجل، وعلى هذا الأساس اقترح معاهدة الصلح، وكان «يرجو» أن يخالفها معاوية لكي تتعمق في النفوس القيم التي نصّت عليها المعاهدة، ولكي يعرف المسلمون، أن من الممكن أن تقوم سلطات تحكم باسم الدين بمخالفة تلك القيم..

وهذه عملية كانت تبدو مستحيلة في ذلك العصر السحيق الذي اعتاد فيه الناس على «تقديس» القابع على العرش واعتباره «مخترع» القيم، وصانع المبادئ.

إن الذين كانوا يطالبون الإمام الحسن عليه السلام بمواصلة الحرب حتى الموت، كانوا ينسون حقيقة مهمة، هي: أن الموت ليس هدفاً، إنما هو وسيلة. فإذا كان يحقق الهدف فهو «شهادة»، وإلا فهو «انتحار»، وبمقدار ما تكون «الشهادة» عظيمة، يكون «الانتحار» حقيراً..

والإمام الحسن عليه السلام لم يشأ الانتحار، بل كان يبحث عن الشهادة، وعندما رأى أن مواصلة الحرب، تعني الانتحار، أحجم عنها، ليحقق أهدافه المقدسة بطريقة أخرى.

وكان أن وقع اختياره على الصلح.

فصلح الإمام الحسن عليه السلام هو: الشهادة بعينها. لأنه صلح أدى إلى النتائج المرجوة بالشهادة، فهو الذي كشف عن مواضع «الدمل» في جسم الأمة بينما أعطى أخاه «المبضع» لكي يستأصله.

إن تصرفات معاوية تعرّت في ظل معاهدة الصلح، وخلقت ذلك الجيل الثائر – من أجل القيم – الذي حمل على كفه روحه، وقاتل بها أصحاب القيم الزائفة في صحراء كربلاء.

فالإمام الحسن عليه السلام – صانع الجيل الثائر – هو الذي فجّر الثورة بصمت بطولي، بينما الإمام الحسين عليه السلام أعطى للثورة صوتاً، ومنبراً، ولوناً.

إن خطة الإمام الحسين عليه السلام كانت تكملة لخطة الإمام الحسن عليه السلام. ونجد آثار ذلك في التراث الرسالي الضخم الذي خلّفه كل منهما وراءه، هذا التراث الذي نجد فيه روحاً واحدة، ومضموناً واحداً، بحيث تستطيع أن تفهم الثورة من خطب الحسن عليه السلام كما تستطيع أن تفهم الصلح من خطب الحسين عليه السلام.

أما الموقفان فكانا واحداً – ومتفقاً عليه عندهما -.

ولكي نفهم ذلك لابد أن نقول:

إن الأحداث التي أدّت إلى ثورة الإمام الحسين عليه السلام، جرت في عهد يزيد بن معاوية على شكل هيّأت للإمام عليه السلام أسباب النجاح في ثورته فلقد تحرّك بعض المسلمين في الكوفة ضد يزيد – بعد موت معاوية – على أساس أن خلافته جاءت نقضاً لأهم بند من بنود اتفاقية الصلح التي أبرمها معاوية مع الإمام الحسن عليه السلام، فكتبوا للحسين عليه السلام يطلبون منه السفر إليهم، معلنين بذلك التمرّد المكشوف على حكم يزيد.

وفوراً لبّى الإمام عليه السلام الطلب.

وأرسل ابن عمّه مسلم بن عقيل كوال من قبله على الكوفة.

ولكن أهل الكوفة باعوا ضمائرهم للسيف والذهب، وتحولوا من أعوان إلى أعداء، وسلّموه إلى «والي يزيد» حيث قتله في وضح النهار.

وفيما كان خبر مقتل مسلم بن عقيل عليه السلام ينتشر في أرجاء العالم الإسلامي، تحرّك الإمام الحسين عليه السلام من مكة متوجّهاً إلى الكوفة، فالتقى في صحراء كربلاء بطلائع جيش يزيد، وحوصر من قبلها لمدة ثلاثة أيام، ثم دخل معها في معركة غير متكافئة القوات: حيث كان عدد جيش يزيد يقرب من نصف مليون جندي، بينما لم يكن جيش الإمام عليه السلام يتجاوز المائتين، بما في ذلك الأطفال والنساء والشيوخ.

وكان عدم التكافؤ مهدوفاً للإمام الحسين عليه السلام، لأن الإمام عليه السلام لم يكن يبحث عن الانتصار العسكري لإنقاذ «السلطات التنفيذية» من براثن الحكم الأموي، وإنما كان يسعى للكشف عن زيف هذه السلطات، ومن ثم فصل السلطات التشريعية عنها.

وقد قُتِل الإمام الحسين عليه السلام في هذه المعركة، مع كل رجاله البالغ عددهم ٧٢ رجلاً، كما قتلت معه أكثر من امرأة، وأكثر من خمسين طفلاً وطفلة، وقطع الجيش الأموي رؤوس القتلى، وطاف بهم – على قمم الرماح – غالبية مدن العالم الإسلامي، وساهم بذلك من حيث لا يدري في إيقاظ الضمير والعقل والفكر في أعماق المسلمين، بعد أن مات فيهم الضمير، ونام العقل، وقُتِل الفكر!

وهكذا.. اكتشف المسلمون بعد مقتل الإمام عليه السلام:

أولاً: زيف المقاييس التي تربّع على أساسها معاوية بن أبي سفيان على العرش.

ثانياً: إن الدين لا يعني «إرادة الخليفة» لأن هذه الإرادة قد تتعلق بارتكاب جريمة بشعة كقتل الإمام الحسين عليه السلام. وإنما هو مجموعة مقاييس ومبادئ سماوية لا تقبل التقولب حسب الأهواء والرغبات.

وبذلك انتصر الحسين عليه السلام حيث انهزم يزيد، وأصبح للإمام عليه السلام حق الحياة على الإسلام، لأنه أنقذه من مصير كان ينتظره، ليس أقل سوءاً من مصير المسيحية[1].

وإذا طالبنا الإمام الحسين عليه السلام أن يحدد الهدف من ثورته المقدسة.. لكان جوابه:

«.. إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدّي.. أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر.

فمن قبلني بقبول الحق، فالله أولى بالحق، ومن ردّ علي هذا، أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين».

وهذا هو البيان الأول لثورته.. فهو يدعو الناس إلى الإيمان بالحق.. لأن الله أولى بالحق، ويخرج من أجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من أجل الردع عن الفساد والجريمة، وليس من أجل التربّع على الكراسي، ولا من أجل أن يصفق له الناس.

وليلة مقتله، حيث كان «مخيّمه» يحاط بقرابة نصف مليون جندي مدجج بالسلاح، نراه يجمع أصحابه ويضعهم أمام مسؤولياتهم، ثم يؤكد أهدافه:

---

(١) ألف باء الإسلام: ص١٩٦-١٩٧.

.. أما بعد..

فقد نزل بنا ما ترون، وأن الدنيا قد تغيرت وتنكّرت وأدبر معروفها، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل.

ألا ترون إلى الحق لا يعمل به؟ وإلى الباطل لا يتناهى عنه؟ ليرغب المؤمن في لقاء الله، فإني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برما..

فالهدف ليس هو المال.

ولا السلطان..

ولا أي شيء آخر..

وإنما الحق.. والحق وحده، وما دام لا يعمل به فالحياة إذن موت.. والموت إذن حياة.

هكذا فهم الثائرون من أجل الله الحياة، وبهذا الفهم العميق أصبحوا أساتذة للثائرين، وأصبحت أهدافهم أهدافاً مقدسة لكل ثورة وأصبحت نوعية جهادهم مقياساً لأي جهاد صادق[1].

فالإمام الحسين عليه السلام لم يكن طالب عرش، ليقيس حركته بمقياس الأرباح والخسائر.

---

(١) الحسين عليه السلام ثائر من أجل الله، للمؤلف.

ولا كان طالب شهرة، ليدخل في حسابه نوع الحركة، وطريقة إخراجها.

إنما كان طالب إصلاح.. كان يريد نسف القيم الجاهلية التي تسرّبت إلى المجتمع الإسلامي بفعل تقاعس المسلمين – حكاماً وشعوباً – عن تحمل مسؤولياتهم.

إن تلك القافلة كانت تتحرك من أجل الله وليس من أجل المادة.. ولذلك فإن الأدلة التي كانت تؤدي إلى ابتعاد الناس عن دين الله، كانت تزيدهم ايماناً بضرورة الإسراع في التحرك..

إن مشكلة الأمة كانت تنبع من ضياع المقاييس الصحيحة في تقييم الحياة والأحياء.

لقد ضيّع الناس في ذلك العصر أنفسهم..

من يتبعون؟ لا يعرفون

من يحالفون؟ لا يعرفون

من يخالفون؟ لا يعرفون..

كيف يدافعون عن أنفسهم؟ لا يعرفون..

كيف يتعاملون فيما بينهم..؟ لا يعرفون..

ولأنهم لم يعودوا يعرفون ذلك، فقد سقطوا في انحراف السلطات.. وبدأوا يرقصون على أنغام الحكام.. من غير أن يربحوا شيئاً.. أو كما قال الإمام الحسين عليه السلام لهم – من غير عدل أفشوه فيكم –.

فبدل أن يتّبعوا الحق – كما أراد الله – اتّبعوا القوة والسلطان.

وبدل أن يحالفوا الأنبياء، حالفوا الدجالين..

وبدل أن يطبقوا منهاج الله في التشريع، طبّقوا آراء الفاسقين.

ولذلك انهزموا في معركة الحياة، وفقدوا كيانهم كأمة ذات حضارة.

ولهذا كله.. ثار عليهم الإمام الحسين عليه السلام، ناقماً منهم ذلك الوضع المشين الذي عاشوا فيه..

والواقع فإن انحراف الأمة لم يكن كل المشكلة، فالانحراف كان طبيعياً، إنما الذي لم يكن طبيعياً، هو صمت الأمة – بكل أفرادها – على الانحراف.

فليس خطيراً أن يقع الظلم من الظالم، إنما الخطير أن يسكت الناس على ذلك..

وهذا ما كان يحدث في عهد الإمام عليه السلام – وقد عبّر عنه ناصحو الإمام عليه السلام عن ضرورة الامتناع عن الرحيل خير تعبير –.

ذلك اليوم كان الشباب إذا سقطوا في الشهوات لم يحاول الكبار منعهم من ذلك.

وكان إذا ابتذلت النساء في المجتمع لم يحاول المسؤولون رفع مكانتهن.

أما الحكّام فقد أذلوا الشعوب، بعد أن ضمنوا مكوثهم على الذل.

وفي هذه الدوامة ضاع جوهر الدين، كما ضاعت مقاييسه.

وتحول الدين – في نظر الجميع – من منهاج الحياة، إلى طقوس فولكلورية يؤديها المسلمون بلا مبالاة مطلقاً.

فلم يعد المؤمن: «العارف بالدين.. والعالم بالسياسة والقوي في أموره» هو المؤمن الحقيقي وإنما أصبح الأكثر ركوعاً وسجوداً، والأبعد عن الانسجام مع الحياة هو المعروف بالكمال.

ولم يعد الحاكم: «الملتزم بمبادئ الدين، والأبعد عن الانسياق وراء الشهوات» هو الحاكم الأكثر شعبية، وإنما أصبح الحاكم الغارق في شهواته، الباسط يده على الحرام والحلال هو الذي تعطيه الجماهير ثقتها.

كان ذلك هو موطن الخطر.

أما ملامح الشعوب، فقد أخذت الشكل التالي:

أولاً: كان كل فرد يعيش في دائرة شهواته، تاركاً ما يجري في المجتمع وعلى العرش، على عاتق الأقدار.

فعندما وصل مسلم بن عقيل عليه السلام إلى الكوفة وبايعه ما لا يقل عن عشرين ألف رجل، أرسل يزيد واليه على البصرة «ابن زياد» ليكون والياً على الكوفة، ولم يكلّف ابن زياد نفسه كثيراً، ليحوّل الناس من أنصار مسلم إلى أنصار يزيد. فقد وعدهم بالتمر، والشعير وهدّدهم بالسجن، والتعذيب، فتخلّوا جميعاً عن مسلم، وانخرطوا في الجيش الذي كان يتّجه نحو محاربة الحسين عليه السلام.

فقد انتشروا من أطراف مسلم عليه السلام، وكل واحد يقول لنفسه: «ماذا لو نجوت بنفسي؟ هل عليّ أن أتحمل انقاذ الآخرين»؟

حتى أن الرجل – كما جاء في التاريخ – كان يأخذ بيد ولده، والمرأة بيد زوجها، والأم بيد أولادها، وكل واحد منهم يقول «ما لكم ومسلم بن عقيل»؟.

ومن العشرين ألفاً الذين بايعوا مسلماً عليه السلام، لم يبق معه بعد دخول ابن زياد إلى الكوفة بأيام، إلا الريح والصدى.

ولذلك فقد استطاع ابن زياد بسهولة أن يقتل مسلم بن عقيل عليه السلام.. ثم يجر جثّته في الأسواق.

وكان ذلك طبيعياً، في المجتمع الذي كان كل فرد يفكّر في نفسه، ومصالحه، وليس في الآخرين.. ومصالحهم..

وكل ذلك يمكن أن يحدث في أي زمان ومكان عندما يذكر الناس في مصالحهم، وليس في مصالح الآخرين.

ثانياً: تحوّل الناس من عبادة الله إلى عبادة السلطان. فأصبحوا مستعدّين لحرق ضمائرهم من أجل إرضاء الحكّام.. وذوي الجاه والمال.

ففي صباح يوم عاشوراء صاح عمرو بن الحجاج – وهو قائد شرس من قواد الجيش الأموي في معركة كربلاء – حين رأى بعض أفراد جيشه ينسلون إلى جانب الحسين عليه السلام:

يا أهل الكوفة.. ألزموا طاعتكم وجماعتكم، ولا ترتابوا في قتل من خرج من الدين، وخالف الإمام..

وهكذا.. أصبحت طاعة يزيد إلزاماً، وجماعة الكفر «جماعة» وأصبح الإمام الحسين عليه السلام مارقاً من الدين وجماعته مفرقة للأمة.. لماذا؟ لأنه رفض الركوع أمام القوة والسلطان.

ثالثاً: لم يعد الكبار يفكّرون في مصير الأمة.. ولذلك فإن القائد الأعلى كان مستعداً للتضحية بالأمة كلها من أجل الحصول على مغنم بسيط، وبسيط جداً.

وكان ذلك نتيجة طبيعية للابتعاد عن قيم الحياة، الصادقة.. والالتصاق بالماديات والشهوات. ففي حوار ساخن جرى بين قائد معسكر العدو، عمر بن سعد مع قائد الطليعة المجاهدة الإمام الحسين عليه السلام قال الإمام عليه السلام:

يا بن سعد أتقاتلني؟ أما تتقي الله الذي إليه معادك فأنا ابن من علمت، ألا تكون معي، وتدع هؤلاء، فإنه أقرب إلى الله تعالى.

أخاف أن تهدم داري..

.. أنا أبنيها لك.

أخاف أن تؤخذ ضيعتي.

.. أنا أخلف عليك خيراً منها.

.. لي بالكوفة عيال، وأخاف عليهم من ابن زياد القتل!

فالمقياس الذي يقيس به الرجل مواقفه في الحرب.. هو: مقياس المادة: المال.. الضيعة.. الدار.. العيال.

ولأجل هذا فهو مستعد أن يشن أبشع حرب، ويجمع حوله نصف مليون رجل، كل واحد منهم يحمل ماركة «الإسلام».

أما مقدّرات الأمة، ومصيرها ومصالحها، فلم تأت في حسابه لأنه كان ينطلق في تقييم الحياة من مقاييسه وليس من مقاييس الدين والإيمان.

ولهذا فقد جاء، جواب الحسين عليه السلام عنيفاً، كعنف إلحاد الرجل.

ما لك؟ ذبحك الله على فراشك عاجلاً، ولا غفر لك يوم حشرك، فوالله إني لأرجو أن لا تأكل من بر العراق إلا يسيراً.

فالحاكم الذي يفتش عن «الضيعة» لن يدوم حكمه، ولن يهنأ بالعيش، ولكن يا ليتهم يعلمون ذلك..

رابعاً: تحوّل «الدين» من ايديولوجية للحياة يتحمل رجالها أكبر المسؤوليات، إلى «دكان» يبيع فيه رجال الدين فتاواهم من أجل كسب المغانم.. والرئاسة.. والقرب..

فقد استطاع معاوية مثلاً: أن يختلق آلاف الأحاديث التي اشتراها من «رجال الدين» ذوي «الماركات الجيدة».

خامساً: في مثل هذا الوضع لم يعد الناس يتمتعون بالأخلاق.. الإنسانية فلا حب، لا ايثار، لا تواضع، لا كرم، لا إنسانية، بل طمع وجشع واستغلال..

وفي مثل هذا الوضع لم يبق مقياس إلا وتعرض للتمزق والاحتراق..

فماذا فعل الإمام الحسين عليه السلام؟

لقد غربل وأسقط من حسابه كل من انساق معهم في الشهوات، وخضع للتيار.

ففي ليلة عاشوراء جمع أصحابه في الخيمة وقال لهم:

«ألا.. وإني لا أظن يومنا من هؤلاء الأعداء إلا غدا، وإني قد أذنت لكم فانطلقوا جميعاً فأنتم في حل، ليس عليكم مني ذمام، وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعاً خيراً، وتفرقوا في سوادكم ومدائنكم فإن القوم إنما يطلبونني، ولو أصابوني لذهلوا عن طلب غيري».

وانصرف عنه كل من خدعته المظاهر، ولوته الماديات.. بينما انتصب أمامه الذين باعوا الله أنفسهم، في صفقة رابحة، وشروا بها الجنة، ليقولوا له:

«نحن نخلي عنك؟ بماذا نعتذر إلى الله في أداء حقك؟ أما والله لا أفارقك حتى أطعن في صدورهم برمحي، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة حتى أموت معك.

وليقول له آخر:

والله.. والله.. وددت أني قتلت ثم نشرت، ثم قتلت، حتى أقتل هكذا ألف مرة، وأن الله عز وجل يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن هؤلاء الفتيان من أهل بيتك.

وهؤلاء هم الذين خاض بهم الحسين عليه السلام معركة التغيير الجذري في مجتمع أفسدته السلطات، ومزقته الأفكار الملحدة، وباعه السلاطين للشيطان..

وكانت هذه المجموعة هي الطليعة التي تستطيع دون غيرها أن تعطي المجتمع أفكاراً جديدة، وسلوكاً جديداً، ونوعاً جديداً للحياة.

فقد كانت هذه المجموعة تتمتع بصفات الطليعة المقاتلة التي لم تخضع لما خضع له الآخرون، ولا تعرضت مقاييسها للتمزق.

طليعة تتصف بصفات:

١ – طليعة مؤمنة بالقيادة، ومستعدة للموت من أجل خلاص الأمة.

٢ – طليعة تتصف بالوحدة الهدفية، والوحدة الروحية، والوحدة النفسية.

بالإضافة إلى تمتّعها بالطريقة الصحيحة في تفجير الثورة وهي طريقة ممارسة الفكر في ساحة المعركة، فقد كان إيمانهم: دليل عمل، ونبراس سير، فلم يكونوا دوغماتيين يعبدون النظرية ويحتقرون الممارسة، ولا عشوائيين يكفرون بالفكر كدليل عمل.

وبهذا التلاحم الرائع بين الرأي السليم والمقدرة الذهنية على وضعه موضع التنفيذ، حققوا وحدة الفكر والعمل، وحدة النظرية والتطبيق، وحدة الغاية والوسيلة.

إنها الطليعة التي لم تتنازل عن مبادئها في الوسائل، كما لم تتنازل عنها في الغايات.

وبهذا قدّمت لنا تراثاً ضخماً من المواقف والأفكار.. تستطيع أن تكون خطوطاً عريضة للفكر، والعمل والحركة.. في كل تغيير.

هذا مسلم بن عقيل عليه السلام: يدخل الكوفة ويسيطر عليها سيطرة كاملة، فيدعو صديقه هاني بن عروة، والي يزيد على الكوفة – نفس الذي قتل مسلم بن عقيل بعد ذلك – يدعوه إلى داره ويطلب من مسلم أن يفاجئه بضربة قاضية، ولكن مسلماً عليه السلام يرفض هذا الأسلوب الجبان في انجاح الثورة.

فما دام هو يريد أن يقضي على أساليب المكر، والخداع، في معالجة الأمور، فلا يمكن أن يستعمل نفس الأساليب في ثورته.. ولذلك فقد قال مسلم لهاني عندما سأله الأخير:

لماذا لم تقتله؟

قال رسول الله: «المسلم لا يغدر».

.. ولكي لا يغدر، ترك الطريق مفتوحاً أمام الرجل الذي قتله بعد ذلك[1].

---

(١) الحسين ثائر من أجل الله، للمؤلف.

.. وبعد

وبعد..

فقد يتساءل البعض:

هل انتهت حاجتنا إلى الإمامين: الحسن والحسين عليهما السلام؟

أم ماذا؟

إن معاوية قد مات.

وأن الحسن عليه السلام قد مات.

وأن يزيد – أيضاً – مات.

وأن الحسين عليه السلام – كذلك – مات.

فهل انتهت قضاياهم، وخلافاتهم، وحروبهم وبقي علينا أن نبحث عن قضايانا، وخلافاتنا، وحروبنا؟

أم يجب علينا أن نظل نبحث في أعماق التاريخ، عن أسباب الحرب التي لم يخضها الإمام الحسن عليه السلام، أو الحرب التي خاضها الإمام الحسين عليه السلام، بينما نهمل واقعنا، وقضايانا، وحروبنا؟

لا أعتقد أن الأمر دائر بين:

١ – أن نبحث عن خلافات سابقة.

٢ – أو أن نبحث عن خلافاتنا المعاصرة.

وإنما الأمر دائر بين قضيتين أساسيتين:

١ – إما أن نفهم التاريخ الذي صنع أجيالنا، ومن ثم نفهم نقاط الضعف فينا، ونقاط القوة أيضاً.

٢ – أو أن نفترض أنفسنا أمة بلا تاريخ، ونحاول أن نفهم ما نحن فيه، كأننا نبدأ من الصفر.

ولا أظن أن البحث عن جذور المشاكل التاريخية ينفصل عن البحث عن جذور المشاكل المعاصرة، والعكس أيضاً صحيح.

فالذي يريد أن يفهم حاضره، لابد أن يفهم ماضيه.

والذي يريد أن يمتلك رؤية للمستقبل لابد أن يمتلك رؤية عن الماضي.

إننا أمة نعيش في الوقت الحاضر على التمزّق، بعضنا يعبد الماضي المحنط، وبعضنا يكفر بالماضي المجيد.

بعضنا يقدّس معاوية، أكثر مما يقدس الإمام علياً عليه السلام، وبعضنا لا يؤمن بمعاوية إلا بمقدار ما يؤمن بكل حقير على وجه الأرض.

بعضنا يتعصّب لما قاله خلفاء بني أمية والعباس ويعترف بهم خلفاء النبي صلى الله عليه وآله وبعضنا لا يعترف بهم إلا كما يعترف بوجود السرطان.

وهـذا يعنـي أن للـماضي وجـوداً عنيفـاً فينـا، وأنـه يحـرّك بعضـنا ضد بعض، ويعصّب عيون بعضنا على محاسن البعض الآخر..

فكيـف نسـتطيع إذن أن نفهـم واقعنـا، ونعـالج مشـاكلنا مـن دون أن نفهم ماضينا، ونحلل مشاكله؟

نحـن لا نبحـث عـن المـاضي للتسـلية، وإنـما لكـي نفهـم وضـعنا الحاضر.

لا نتحـدث عـن الإمـام الحسـن عليه السلام كـذات وتـاريخ، وإنـما نبحـث عنه كقضية وقيم.

تمامـاً كـما لا نتحـدث عـن الإمـام الحسـين عليه السلام كجسـد، ومأسـاة، وإنما نبحث عنه كفكر وعمل.

وحتـى بالنسـبة إلى عـدويها فـنحن لا نتحـدث عـن معاويـة كرجل يحمل هـذا الاسـم وقـد حكـم في فـترة ماضـية مـن الـزمن، وإنـما نتحدث عنه كطريقة حياة، وأسلوب عمل.

ولا نتحـدث عـن ابنـه يزيـد، كـابن لمعاويـة، وإنـما نتحـدث عنـه كخط في الحياة..

إن الـذين يظنـون أن الحاجـة إلى الإمـام الحسـن والإمـام الحسـين عليهما السلام قـد انتهـت، هـم الـذين يعقـدون مقابلـة بـين شخصـيتين تـاريخيتين، أي أنهـم يفسـّرون الإمـام الحسـن عليه السلام برجـل كـان يعـيش

قبل أكثر من ألف عام، وقاتل معاوية ثم صالحه، كما أنهم يفسّرون الإمام الحسين عليه السلام برجل كان يعيش قبل أكثر من ألف عام، وقاتل يزيد حتى قُتِل، ولذلك كلّه فإنهم يشعرون أن الحاجة إليهما قد انتهت بانتهاء معاوية ويزيد.

ولكننا إذا أخذنا بعين الاعتبار القيم التي كان يتحرك على أساسها كل من الإمام الحسن أو الإمام الحسين عليهما السلام، فإننا نشعر أن حاجتنا إليهما تزداد عنفاً كلما ابتعد الإنسان عن تلك القيم، أو ازداد مأساة تحت ظل السلطات المعاوية أو الحكومات اليزيدية.

إن الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام نموذجان خاصان في الحياة، ولذلك فهما لم يموتا..

وإن معاوية ويزيد خطّان خاصان في الحياة ولذلك فإنهما لن يموتا..

والآن هل عرفتم معنى قول النبي صلى الله عليه وآله:

«الحسن والحسين إمامان إن قاما وإن قعدا»؟

هادي المدرسي

٢٠/ ج٢/ ١٣٩٣هـ

الفهرس

مقدّمة المركز:.....٥

الفصل الأول: الإمامة وموقعها من الرسالة.....٩

سؤالان خطيران ١١

الفصل الثاني: إمامان ٦٣

لماذا الاختلاف في الموقف؟ ٦٦

الملاحظة الأولى: ٦٨

الملاحظة الثانية:.....٧٠

الملاحظة الثالثة: ٧١

الملاحظة الرابعة:.....٧٣

الملاحظة الخامسة: ٧٥

وثيقة الصلح: والأجوبة الخاطئة.....٨١

تهيئة الأجواء للثورة كانت هي السبب.....٩٦

صلح الإمام الحسن عليه السلام: ثورة وثورة الإمام الحسين عليه السلام: صوتها ١١١

.. وبعد.....١٢٩

الفهرس.....١٣٣

من أجل التواصل بين المركز والقارئ

عزيزي القارئ الكريم..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نشكر لك اقتناءك كتابنا: (امامان إن قاما وإن قعدا للسيد هادي المدرسي) ورغبة منا في تواصلٍ بنّاء بين المركز والقارئ، وباعتبار أن رأيك مهمٌ بالنسبة لنا، فيسعدنا أن تُرسل إلينا دائماً بملاحظاتك، لكي ندفع بمسيرتنا سويّاً إلى الأمام.

الاسم الثلاثي واللقب: ..... الوظيفة (اختياري): .....

المؤهل الدراسي: ..... السن (اختياري): .....

العنوان (اختياري):

الدولة: ..... المدينة: ..... الحي: ..... الشارع: ..... رقم الدار: ..... ص.ب: .....

الهاتف (اختياري): .....

البريد الألكتروني: .....

❖ من أين عرفت هذا الكتاب؟

○ أثناء زيارة مكتبة ○ ترشيح من صديق ○ إعلان ○ معرض ○ غيرها

❖ من أين اشتريت الكتاب؟

اسم المكتبة أو المعرض: ..... المدينة: ..... العنوان: .....

❖ ما رأيك في الكتاب؟

○ ممتاز ○ جيد ○ عادي (لطفاً وضح لِمَ) .....

❖ ما رأيك في إخراج الكتاب؟

○ عادي ○ جيد ○ متميّز (لطفاً وضح لِمَ) .....

❖ ما رأيك في سعر الكتاب؟

○ مناسب ○ معقول ○ مرتفع (لطفاً أذكر سعر الشراء) ..... العملة: .....

عزيزي القارئ انطلاقاً من أن ملاحظاتك واقتراحاتك سبيلنا للتطوير وباعتبارك من قرائنا فنحن نرحب بملاحظاتك النافعة... فلا تتوانَ ودَوّن ما يجول في خاطرك:

.....

.....

.....

.....

عنوان المراسلة:

العراق- النجف الأشرف- شارع المثنى- مركز الإمام الحسن ﷺ للدراسات التخصصية

الموقع الرسمي: www.imamhassan.org | البريد الألكتروني: info@imamhassan.org

هاتف: ٠٠٩٦٤٧٨٠٣٣٥٨٠٢٠ | /AlimamAlhasan47